

مجلة مجمع العلمي العربي

العدد ١٣٣٩ سنة ١٩٦١ الموافقة سنة ١٩٦١ م

تشرى دمشق مرة في شهر

كانون الثاني وشباط سنة ١٩٦٢ م

المحرم وصفر سنة ١٣٦١ هـ

مركز تحقيقات كاتوير علوم إسلامي



دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
الدفع مقدماً { وفي جميع الاقطار ٤٠٠ = =

مطبعة الترقى بدمشق



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

اعضاء المجمع العلمي العربي

في سنة ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م

الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
١ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي دمشق	٢٦ الدكتور نقولا فياض	بيروت	١ السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي دمشق	٢٦ الدكتور نقولا فياض
٢ الدكتور اسعد الحكيم	«	٢٧ السيد عيسى اسكندر المعلوف	٢ الدكتور اسعد الحكيم	«
٣ الشيخ بهجة البيطار	«	٢٨ عارف الزكدي	٣ الشيخ بهجة البيطار	«
٤ السيد خليل مردم بك	«	٢٩ الشيخ احمد رضا	٤ السيد خليل مردم بك	«
٥ رشيد بقونس	«	٣٠ سليمان ظاهر	٥ رشيد بقونس	«
٦ سليم الجندي	«	٣١ سليمان احمد	٦ سليم الجندي	«
٧ شفيق جبري	«	٣٢ السيد ادوار مرقس	٧ شفيق جبري	«
٨ الشيخ عبد القادر المبارك	«	٣٣ الشيخ محمد زين العابدين	٨ الشيخ عبد القادر المبارك	«
٩ عبد القادر المنري	«	٣٤ السيد محمد اسعاف النشاشيبي	٩ عبد القادر المنري	«
١٠ السيد عز الدين التتوخي	«	٣٥ عبد الله مخلص	١٠ السيد عز الدين التتوخي	«
١١ فارس الخوري	«	٣٦ الشيخ رضا الشيباني	١١ فارس الخوري	«
١٢ الدكتور مرشد خاطر	«	٣٧ الاب انستاس ماري الكرملي	١٢ الدكتور مرشد خاطر	«
١٣ السيد معروف الارناؤوط	«	٣٨ السيد كاظم الدجيلي	١٣ السيد معروف الارناؤوط	«
١٤ الامير مصطفى الشهابي	«	٣٩ معروف الرصافي	١٤ الامير مصطفى الشهابي	«
١٥ الشيخ بدر الدين النعساني	حلب	٤٠ طه الراوي	١٥ الشيخ بدر الدين النعساني	حلب
١٦ راجب الطباخ	«	٤١ الشيخ محمد بهجة الانزي	١٦ راجب الطباخ	«
١٧ عبد الحميد الجابري	«	٤٢ مصطفى باشا عبد الرازق	١٧ عبد الحميد الجابري	«
١٨ عبد الحميد الكيالي	«	٤٣ السيد عبد العزيز البشري	١٨ عبد الحميد الكيالي	«
١٩ السيد سوريوس افرام	حما	٤٤ السيد خليل ثابت	١٩ السيد سوريوس افرام	حما
٢٠ الشيخ ابراهيم منذر	بيروت	٤٥ أحمد بك أمين	٢٠ الشيخ ابراهيم منذر	بيروت
٢١ فؤاد الخطيب	«	٤٦ السيد أحمد حسن الزيات	٢١ فؤاد الخطيب	«
٢٢ السيد بولس الخولي	«	٤٧ محمد لطفي جمعة	٢٢ السيد بولس الخولي	«
٢٣ عمر الفاخوري	«	٤٨ الدكتور أحمد عيسى بك	٢٣ عمر الفاخوري	«
٢٤ فيكونت فيليب طرازي	«	٤٩ أحمد لطفي السيد باشا	٢٤ فيكونت فيليب طرازي	«
٢٥ الشيخ مصطفى الغلايني	«	٥٠ السيد خير الدين الزركلي	٢٥ الشيخ مصطفى الغلايني	«

أعضاء المجمع العلمي العربي

٤

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
٥١	الدكتور أمين باشا المفلوح	مصر	٧٠	السيد هوتما	محل الإقامة
٥٢	خليل مطران بك	"	٧١	أراندونك	هولاندا
٥٣	السيد عباس محمود العقاد	"	٧٢	كرينكو	انكلترا
٥٤	الشيخ محمد الخضر حسين	"	٧٣	بروكلن	المانيا
٥٥	السيد حسن حسني عبدالوهاب	تونس	٧٤	هارتمان	"
٥٦	الشيخ عبد الحمي الكستاني	فاس	٧٥	ميتفوخ	"
٥٧	الامير شكيب أرسلان	لوزان	٧٦	ذرتستين	السويد
٥٨	السيد عبد العزيز الميني الراجكوتي	الهند	٧٧	اوستروب	الدانمارك
٥٩	عباس إقبال	طهران	٧٨	موجيك	فينيا
٦٠	مارسيه	تونس	٧٩	ماهر	بودابست
٦١	ماسه	الجزائر	٨٠	كوفالسي	بولونية
٦٢	كولان	رباط (مراكش)	٨١	كرانشكوفسكي	لينينغراد
٦٣	كي	"	٨٢	موزل	براغ
٦٤	دوسو	باريز	٨٣	كريسكو	فلاندا
٦٥	ماسينيون	"	٨٤	ماكدونالد	أميركا
٦٦	بوغا	"	٨٥	هرزفلد	"
٦٧	آسين بلاسيوس	مجرط (اسبانيا)	٨٦	فيليب حتي	"
٦٨	لوبيس	لشبونة (البرتغال)	٨٧	الدكتور سعيد أبو حمزة	البرازيل
٦٩	هيس	سويسرة			

أعضاء المجمع العلمي الراحلون

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
١	الشيخ طاهر الجزائري	دمشق	٣	السيد مالنجو	دمشق
٢	مسمود الكواكبي	"	٤	الشيخ سليم البخاري	"

أعضاء المجمع العلمي العربي

٤

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
٥١	الدكتور أمين باشا المفلوح	مصر	٧٠	السيد هوتما	محل الإقامة
٥٢	خليل مطران بك	"	٧١	أراندونك	هولاندا
٥٣	السيد عباس محمود العقاد	"	٧٢	كرينكو	انكلترا
٥٤	الشيخ محمد الخضر حسين	"	٧٣	بروكلن	المانيا
٥٥	السيد حسن حسني عبدالوهاب	تونس	٧٤	هارتمان	"
٥٦	الشيخ عبد الحمي الكستاني	فاس	٧٥	ميتفوخ	"
٥٧	الامير شكيب أرسلان	لوزان	٧٦	ذرتستين	السويد
٥٨	السيد عبد العزيز الميني الراجكوتي	الهند	٧٧	اوستروب	الدانمارك
٥٩	عباس إقبال	طهران	٧٨	موجيك	فينيا
٦٠	مارسيه	تونس	٧٩	ماهر	بودابست
٦١	ماسه	الجزائر	٨٠	كوفالسي	بولونية
٦٢	كولان	رباط (مراكش)	٨١	كرانشكوفسكي	لينينغراد
٦٣	كي	"	٨٢	موزل	براغ
٦٤	دوسو	باريز	٨٣	كريسكو	فلاندا
٦٥	ماسينيون	"	٨٤	ماكدونالد	أميركا
٦٦	بوغا	"	٨٥	هرزفلد	"
٦٧	آسين بلاسيوس	مجرط (اسبانيا)	٨٦	فيليب حتي	"
٦٨	لويس	لشبونة (البرتغال)	٨٧	الدكتور سعيد أبو حمرة	البرازيل
٦٩	هيس	سويسرة			

أعضاء المجمع العلمي الراحلون

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
١	الشيخ طاهر الجزائري	دمشق	٣	السيد مالنجو	دمشق
٢	مسمود الكواكبي	"	٤	الشيخ سليم البخاري	"

أعضاء المجمع العلمي الراحلون

عدد	الاسم	محل الإقامة	عدد	الاسم	محل الإقامة
٥	السيد الياس قدسي	دمشق	٣٥	السيد مصطفى صادق الرافعي	مصر
٦	: أنيس سلوم	"	٣٦	أحمد كمال باشا	:
٧	: جميل العظم	"	٣٧	أحمد تيمور باشا	:
٨	: سليم دنحوري	"	٣٨	السيد مصطفى لطفى المنفلوطي	:
٩	: عبد الله وعد	:	٣٩	الدكتور يعقوب صروف	:
١٠	: أمين الزنجاني	بيروت	٤٠	السيد اوجيفيو غريغيني	:
١١	: حسن يهم	:	٤١	" رفيق العظم	:
١٢	: الأب لويس شيخو	:	٤٢	الشيخ محمد بن أبي شنب	الجزائر
١٣	: الشيخ عبد الله البستاني	:	٤٣	السيد رينه باسه	:
١٤	: السيد جبر ضومط	:	٤٤	: ميشو بلاير	طنجة
١٥	: عبد الباسط فتح الله	:	٤٥	: زكي مقامز	الاستانة
١٦	: الشيخ عبد الرحمن سلام	:	٤٦	الحكيم محمد أجمل خان	الهند
١٧	: السيد جرجي بني	طرابلس الشام	٤٧	السيد فران	باريز
١٨	: الدكتور صالح قنباز	حماه	٤٨	: كليمان هوار	:
١٩	: الأب جرجس شلعت	حلب	٤٩	: جويدي	ايطاليا
٢٠	: السيد جرجس منش	:	٥٠	: نلينو	:
٢١	: " قسطنطين حصى	:	٥١	: هول	المانيا
٢٢	: الشيخ كامل الفزي	:	٥٢	: ساخاو	:
٢٣	: السيد ميخائيل الصفال	:	٥٣	: هوروفيتز	:
٢٤	: الشيخ خليل الخالدي	القدس	٥٤	: مارتين هارتمان	:
٢٥	: السيد نخلة ذريق	:	٥٥	: موتته	سويسرا
٢٦	: الشيخ سميد الكرمي	طولكرم	٥٦	: سنوك هوغرينه	هولاندة
٢٧	: جيل صدقي الزهاوي	بغداد	٥٧	: مرجليوت	انكرا
٢٨	: محمود شكري الآلومي	:	٥٨	: بفن	:
٢٩	: احمد الاسكندري	مصر	٥٩	: براون	:
٣٠	: احمد زكي باشا	:	٦٠	: بول	الدانمارك
٣١	: احمد شوقي بك	:	٦١	: بدرسن	:
٣٢	: السيد أسعد خليل داغر	:	٦٢	: اغناطيوس غولد صهير	بودابست
٣٣	: حافظ ابراهيم بك	:	٦٣	: الشيخ ابو عبد الله الزنجاني	زنجان
٣٤	: الشيخ محمد رشيد رضا	:			

هل تمدنا؟^(١)

« ادعى بعض الهازلين ان مقياس تمدن أمة ما تنفقه من صابون وطوابع يريد ، وهذا التعريف الغريب غير كاف اللاباة عن معنى التمدن ، فعلى الممدّن ان يعرف بعض اسرار القوى المحيطة به ، وبقدر ما تكثرت معلوماته من هذا القبيل يكون حفظه من المدنية أوفر . والهمجي هو الذي لا يفهم شيئاً من أمور العالم ، أما نحن فقد فهمنا أكثر منه قليلاً قليلاً . ومنها ان معرفتنا بأن الجدري مرض جرثومي ينتشر ولكن لا بفعل ملك جبار بعد من المدنية . وعلمنا بأن خسوف القمر يحصل من اعتراض الارض بينه وبين الشمس ولا يخسف من فعل تنين يأكله ، بعد خروجاً من الوحشية بعض الشيء . والقول بأن الهواء ثقيل ويتألف من غازين مختلفين ينم عن بلوغنا درجة من الرقي العقلي .

« والواقع ان معرفة الأشياء أحياناً تستلزم امكان الانتفاع بها وتطبيقها على حاجتنا ، فحتى عرف ان الجدري ينشأ من جرثومة وأنا في امكاننا وقاية اجسامنا اذا اتقينا تلك الجرثومة بجرثومة اخرى ، فهذا يقال له تمدن لأنه جزء من معرفة الأشياء . وفي وسعنا بالاعتماد على هذه المعرفة نفسها ان نكون بأمن من الجدري وان نبذل بعض اعراض البؤس الشديد .

« وهناك فرض آخر بسيط للغاية ذلك انا اذا ادعينا اننا نعلم الآن جميع الامرار التي يعرفها البشر بعد قرن فنحن أكثر تمدناً مما نحن اليوم ، ولنا أن نقول ان رجال هذا العهد أكثر تمدناً مما كان معاصرو ليوناردي فنشي ، ومن عاصرو هذا الرجل أكثر تمدناً من جنود اغامنون . ولا يفهم من معنى التمدن فرط السعادة ابداً ، فقد يحدث ان يسي الناس كثيراً استعمال المنافع التي أنعم بها العمل العلمي المستديم فلا يحصل الانتفاع بالعلم . فاذا كانت الطيارات تستخدم خاصة في ضرب

(١) حديث القاء السيد محمد كرد علي في راديو فلسطين بالقدس يوم الخميس في ٢ رمضان سنة

المدن فالطيران اكتشاف مضر ، واذا كان من ارتقاء الكيمياء احداث غازات سامة تهلك سرية من الجند في بضع دقائق فالكيمياء علم ملعون . فالتمدن اذا بالمعنى الصحيح الذي يدل عليه ، هو مقدار عظيم من السعادة تحف حياتنا البشرية ، ولا تقوم الا بمعرفة الأشياء وباستعمالها المفيد . والحاجة تستلزم فوق هذا ان يضم اليها ماله علاقة بالأخلاق كالتمسك بالاخاء والانساني وحرمة الحق . وحق ثابت ما اقترحنه من ان سعادة البشر تتوقف على ارتقاء المعارف خاصة .

« لا يقوم تمدن ولا رفاهية بدون معرفة طبائع الأشياء ، ولا تكون الحياة بغير هذا الا وحشية وفي أقسى وحشيتها ، فالواجب صرف العناية الى الخير لا الى الشر . وبعبارة أخرى ان العلم شرط ضروري للسعادة البشرية ويتوقف على أمور أخرى . ان فهم قليل من الأمور في العالم ضروري لسعادة الناس العظمى او لشقايتهم ، وكل ارتقاء في العلم هو ارتقاء في المدنية ويعاون على سعادة البشر . »

هذا ما قاله العلامة شارل ريشه^(١) في كتابه العالم . وعرف الافرنج المدنية أيضاً بأنها وحدة مركبة من الأفكار السائدة والعادات الراسخة التي يعيش في سلطانها كل انسان عاش مجتمعاً مع غيره ، وفي كل مكان جمع أناساً كانت بينهم علاقات مستقرة او متزلزلة ، وكان من هذه العلاقات صفات وكفايات وبعض قوة او بعض ضعف ، ومن كانت حاله كذلك فصفه بأنه متمدن . والفرق بين الشعوب المحمية والشعوب المدنية ما تتمتع به هذه من أوضاع سياسية وادارية وثروة عامة وثقافة أدبية وفنية وعلمية واستقلال نسبي وان يكون ثمت توسع في العمل وسير الى الامام في النظام الاقتصادي والعقلي والأدبي فالرجل المتمدن هو الذي يرمي بعصره الى المستقبل ، وهذا التعريف كاف لتمييزه عن المتوحش الذي يعيش كل يوم بيومه ، ويستهلك في الحال كل ما يستحصل ، ويسرف في قوته تلهذاً بالاسراف واللعب فقط ، وهو ابداً ينظر الى الماضي ويلهو بالحاضر ولا ينظر الى المستقبل . واختلفوا في

(١) Charles Richet: Le Savant (Dans les caractères de ce temps.)

كتاب العالم لشارل ريشه (من مجموعة أخلاق هذا العصر)

الأسباب التي تنبعث منها المدنية فقال بعضهم ان المدنية تنبعث من العنصرية وقال بعضهم انها من ثمرة الدين وقال كارل ماركس ان المدنية بمجموعها (التشريع والامرة والفن والعلم والأخلاق الخ) هي محصول الأسباب الاقتصادية ومرآة العوامل المادية . وسأل بوكال المؤرخ الانكليزي هل كانت الثقافة العقلية او الثقافة الاخلاقية هي التي تساعد على انبعاث المدنية ورجح العامل الأول أي الثقافة العقلية ^(١) .

وبعد فقد توفرت بعض الأقطار العربية وفي مقدمتها مصر منذ القرن الماضي على السير في طرائق التمدنين فبلغت بعد ثلاثة أجيال درجة عالية من التمدن ، وظل الجمهور الأعظم من بنيتها على وحشيتها ، فانترجت مسافة التمدن بين ابن الريف وابن المدينة . وكذلك يقال في الشام فان المدنية دخلت مدنها وظلت البوادي ومعظم القرى على ما كانت عليه . وانك لتري في مصر والشام لعهدنا تمدناً لا يقل عن تمدن الشعوب الاوربية والى جانبه انحطاطاً عجيباً لان نسبة بينه وبين الترقى الذي بلغه سكان الحواضر .

لا جرم ان مظاهر الحضارة في كل بلد من بلدان الشرق والغرب متفاوتة ، فابن المدينة غير ابن القرية ابداً ، والتفاوت في مصر والشام عظيم جداً بين الحواضر والأرياف . وكلامنا نحصره في ذينك القطرين لانها اول الأقطار العربية التي نهضت في العهد الأخير في هذا الشرق القريب . تباين شديد بين القروي والبلدي واكثر منه بين البدوي والحضري ، ولا يقل عنه الفرق بين المتعلم والجاهل .

قضى العلم الحديث على كثير من الخرافات كان الناس في العصر السالف يعدونها حقائق ثابتة لا تقبل الرد والنقض . كان الناس يعتقدون ان القمر يخسف بفعل حوت يهيم بأكله وانهم اذا ضربوا له بما يفزعهم يفلت من أنياب الحوت ، وان الارض واقفة على قرن ثور وانها ثابتة لا تدور . وان الطواغيت

(١) Nouveau Larousse Illustré (Art. Civilisation)

قاموس لاروس المصور (مادة : تمدن)

Towner: La philosophie de la civilisation (Traduit de l'Anglais).

فلسفة التمدن لتوفر (مترجم عن الانكليزية)

والاوبئة من فعل الجن ، ولا يعتقدون بالعدوى ولا يعترفون بوجود الجراثيم ، مع ان في السيرة النبوية احاديث تحذر من مدانة المريض ، وتقول بالنسبات المهلكة اي بالجراثيم ، وكانوا يتطيرون بالأيام والأناسي والحيوان والطير ، ويتمنون بمن يقع من أنفسهم موقعاً حسناً او توههم الخيلة انهم مصدر للخير ، ويتطيبون بالأدعية والتعاويذ ، ويحجون بالطلاسم والرقى ، ويؤمنون بالمغيبات والكرامات ، ويأنسوت بالخرافات والخزعبلات . وقد بطل كل أولئك في البيئات المتعلمة ، ولم تخل بعض البيوت من بقايا محسوسة من هذه المعتقدات لأن عدد المتعلمين والمعلمات من الأبناء والبنات أقل من الأميين والأميات .

كانت الناس حاشا العلماء يحسنون ظنهم بالطرق والمشايع فبطل هذا الاعتقاد في كثير من المدن والقرى . واذا ذكرت الآن أمام أناس وكانوا من أسعدهم الحظ بأن تعلموا التعليم الابتدائي او ممن عاشوا في بيئة راقية وسمعوا كلام المثقفين ضحكوا بمن يعتقد بها . وعلى هذا غدا الناس يستعملون عقولهم وكانوا مدة قرون يسلمون بكل ما سمعوا من كبير او من يمتقدون انه افهم منهم . وكان يهون على السذج ان يقضوا أياماً طويلة كل سنة لحضور الموالد وزيارة المشاهد وكان الناس في مصر وايران بل في فلسطين أيضاً يعطلون أشغالهم كل سنة للاشتراك بمولد بعض الأولياء وندبة أحد الشهداء ، فأبطلت الحكومات ذلك فعد ابطالها من علائم التمدن ، وكم من اعتقاد كان راسخاً في الصدور بقوة الجهل ، وتسلسله من الأجداد الى الأحفاد ، فعاق المرء عن التعلم والأخذ بالأسباب ، فترع من الصدور ووقف المعتدلون من المتعلمين عند حد مارسمته الشريعة من المعتقدات وبنذوا مازاد عليها وهذا أيضاً من التمدن .

كان جمهور الأمة يؤمن ايماناً غريباً بالسحر والتنجيم واستخراج البخت والقال وتأثير العين ونفع الطلسمات والرقى فغدا اليوم ينكر صغار فتيات المدارس هذه الأمور ولا يسع آباءهم وأمهاتهم الا أن يقلدوهم في معتقدهم وهذا اعتراف ضمني من الأميين او من كان في طبقته بأن المتعلم أكثر معرفة ثم أكثر تمدناً ممن لم

يتعلم ولم يتثقف . كانوا الى عهد قريب يؤخذون بكلام كل من يقص عليهم غريبة فيعتقدون صحتها ويعظمون أمر من رواها ويعدون عمله من القربات فاضمحل كل ذلك ، وهذا أيضاً من المدنية حلّ العقل محل الجهل .

وإذا جئنا نوازن بين حالنا اليوم وحالنا في أواخر القرن الماضي من حيث الاجتماع والتنظيم والبعد ما أمكن عن التخريف والاعتقاد بالمجهولات نشهد مغتربين انا خطونا خطوات واسعة في خمسين سنة ماخطتها اكبر الأمم الحديثة تمداً في مثل هذه الحقبة . وأنا لثرى اليوم ابن الثامنة عشرة الذي درس الدروس الثانوية ارقى بعقله ومعرفته من معظم من يروي التاريخ أخبارهم ويشير الى انهم من العلماء والفضلاء . وعلى هذا ترى أهل الطبقة الوسطى الآن يعيشون عيشة تقرب من عيش أعظم الخلفاء في القرون الاولى للإسلام بما اقتبسوه من مقومات المدنية ونعموا به من خيرات الحضارة الحديثة .

كان المسلمون يمزجون كل شيء من أمور الدنيا بأموال الدين فقصروا اليوم الدين على أعمال الروح والتفتوا الى دنياهم فأخذوا عن الغرب طرائقه في معاناة الأمور المالية والاقتصادية ، ينشئون المصارف والبيوت المالية والتجارية على أساليب غربية صرفة لاشأن للدين فيها ، واقتبسوا قوانين الغرب وانظمتهم وأوضاعه وما وجدوا حرجاً في ذلك كما اقتبسوا معظم مصطلحاتهم المدنية في البيوت والمجالس والموائد والمواسم والملاهي والملابس والآلات وغيرها . وكلما عمت هذه الأفكار والأوضاع البوادي كما عمت المدن ، وتناولها الأميون كما تناولها المتعلمون ، زادت سعادة البيوت وسعادة المجتمعات واطلق علينا اسم ممدنين .

من علائم المدنية ما نشهده في مراعاة الجمهور للنساء في الطرق والسكك الحديدية والترام والمقاهي والمطاعم والفنادق ، وكنّ منذ جيل موضع سخرية وامتهان ، وهذا ولا شك من آثار استمتاع النساء بحقوقهن في هذا العصر وتبدل عظيم في نظر القوم اليهن ، ومن علائم المدنية انهن يتمتعن اليوم بالطلاق كما كان ذلك خاصاً بأزواجهن ، أعطين هذا الحق وما خرج المشرع عن قانون الشرع الذي اغفل

اجيالاً بقوة الجهل واستبداد الرجال بالنساء . ومعنى هذا ان ما تتمتع به المرأة اليوم من الحرمة والكرامة اكثر مما كانت عليه في القرون الوسطى . ذكر ابن الفرات في تاريخه في حوادث سنة ٧٩٣ انه صدر مرسوم الامير الكبير في القاهرة بأن لا تخرج امرأة من بيتها الى التربة وان كل من وجد منهن في تربة من التربة وسطت هي والمكاري والحمار ، وألاً بتفرج أحد في مركب في البحر وان من وجد في مركب احرق هو والمركب والنوتي فتحاص الناس ذلك في أيام العيد ولم يجسر أحد ان يتفرج ولم تجسر امرأة تطلع الى القرافة ولا الى التربة .

وذكر هذا المؤرخ في حوادث تلك السنة ان الامير الكبير كمشغافاً نائب الغيبة في القاهرة أرسل جماعة من الاوقاف السطانية ومعهم جماعة من مماليكه فداروا الأسواق والقياس والطرق بالقاهرة وظواهرها فقطعوا اكمام النساء الواسعة بسكاكين كانت معهم وحصل لبعض النساء رجفة عظيمة لأنهم كانوا يأتون المرأة على حين غفلة ويمسكونها حتى يقطعوا كمها ، وبعض النساء وضعن حملهن من الرجفة وبعضهن سقط مغشياً عليه وامتنع النساء من لبس القصان بالاكام الواسعة وتفصيلها . قال المؤرخ ولو تم ذلك لكان خيراً عظيماً لكن النساء أعدن ذلك بعد حضور السلطان من الشام ! ١١٥٠ . جرى هذا في القاهرة أعظم مدن الاسلام مدينة في القرن الثامن كما شهد بذلك ابن خلدون المؤرخ العظيم .

ولك ان تعد في الممدنين كل من لا يؤذي جاره ولا موأكله ولا رفيقه ولا المارة بها كانت درجاتهم في المجتمع ولا يعث بقانون المجتمعات ، وكل من يعرف أين تنتهي حريته الشخصية وتبدأ حرية غيره . فمن يلزم التؤدة والوقار في الجوامع والبيع ودور التمثيل والموسيقى والاندية والمتنزعات ويظهر بمظهر المعتدل في شعوره وسركاته وسمته ، ونظافة ثيابه وأطرافه ، ويتخرج من ايذاء مثافه بصنائه وبجده يعد من الممدنين ، وكذلك كل من لا يحدوه حب الفضول الى البحث في خصوصيات جاره ومواطنه ومساكنه الا اذا كان من وراء ذلك فائدة للمجتمع .

وكل من راعى القوانين العامة في بلاده يحسب رجلاً ممدناً ، وكل من تنظف وتجميل وتزين ، رجلاً كان او امرأة على شرط عدم الافراط في ذلك يعد ممدناً ، ومن يهون عليه خرق النظام ، فهو في أقصى درجات التوحش . واذا وقف المرء عند حدود الآداب العامة وصان لسانه عن استعمال الفاظ الفحش والبذاء واقتصر في كلامه العام على ما اذا أوردته أمام العذارى لا ينجلن منه عدّ عمله عمل المتمدنين ، وكما أدرك المرء الا سعادة له ولدويه الا اذا اهتم للمصالح العامة اهتمامه بمصالحه الخاصة وان سعادة غيره سعادة له ، وان شقاء وطنه يزيد ان لم يشارك مشاركة فعلية في انهاضه وانه اذا لم يأت هذا مختاراً عدّ لصاً في أرضه يستمتع بخيراتهما ويلقي على غارب غيره متاعها .

مثال من تمدنا وتوحش أهل القرون الغابرة . ما اظن انساناً نظراً قليلاً في كتب الأدب الا ورأى بعض شعرائنا يصدّعون الآذات بما قالوه في وصف الخللخال ، وما تغزلوا به واكبروا من جماله ، وما أبدوا من عجبهم من حركته وسكونه . ومن لم يتصور ذاك القيد الثقيل في رجل المرأة لا يدرك مقدار العبودية التي فرضها الرجال على النساء في غير الأزمان ، ولا يعرف مدى الوحشية وقلة الذوق من عد مثل هذه الحديدية اللامعة من المفريات . ما الخللخال في الواقع الا صورة صادقة من عصور الهمجية الأولى ، ومن تأمله حق التأمل يدرك مضرته التي أعجب بها الشعراء ، ويحكم على الذوق المنقهر عندهم . الى اليوم ترون صورة من الخللخال في أرجل بعض الفلاحات في ريف مصر وريف الشام كما نجد الفتيات الصبنيات يحصرن أرجلهن في أحذية ضيقة من الحديد حتى اذا شبين بقيت أرجلهن صغيرة دليل الجمال . كلما فكرت في هذا الخللخال أجد فيه البشاعة كلها والهمجية كلها ، وكما رأيت كيف اضمحل وجوده عند ساكنات المدن اليوم لا يخامرني شك في أننا قطعنا مراحل طويلة في سبيل المدنية . وكذلك كلما رأيت ذاك الخزام الذين يخزمون به انف الفتاة وقد بطل أيضاً استعماله في المدرس ، ولم يبطل عند البدويات والقرويات في القطر المصري خاصة . ولم يبطل الى اليوم ثقب اذني الفتاة ليعلق فيها القرطان ،

ولم يبطل الوشم في أكثر الأرجاء العربية يسودون بالزرقه الساعدين واليدين والرجلين والوجه واما كن أخرى من الجسم الانساني فتظل مشوهة طول حياتها ونفقد كثيراً من جمالها ويشاركها في هذا التشويه الرجال .

كلما تأملت هذه التشوهات يحمل بها في الاكثر القوي على الضيف ، وقد اصبحت على توالي الاحقاب من الأمور المتعارفة التي لا تنكر ، احمد الله على انه خلقنا في هذا العصر وخلق لنا عقولاً نميز بها بين الجميل والقبيح والنافع والضار . ومن الهمجية جرأة النساء في مصر والحجاز على قطع جزء من جسم الفتاة لأمر يتوهمها منها اذا شبت وكبرت ، يغيرون بذلك صنع الخالق مع مخلوقة لا تملك أمر نفسها . ومن المدنية ان تنبو عيوب ابناء هذا الزمان عن هذه التشوهات والهمجيات . وكيف لا نعد ذلك من المدنية ونسجل اللعنات على من آذوا المرأة في كل حالاتها وما عدوا شائن أعمالهم بدعة . وكان الزوج يضرب زوجته ويشتمها ويضرب أولاده ويعبس في وجوههم بسبب وبلا سبب ويعامل المرأة خاصة معاملة قاسية لا ينظر اليها الا انها مملوكة .

هذا واذا عدلنا مع أنفسنا وقسنا تمدننا في مجموع صورته على القاعدة التي سنها القرب للمدنيين وجعلوها المعيار في التمدن نجد أننا أحسننا الى الآن بعض فروعهم وأغفلنا بعضاً وتلقفنا بعضاً . ردوا عوامل التمدن الى ثمانية أبواب ^(١) كما ردها العلامة وابل دوران المؤرخ الاميركي . الاول منها العمل من زراعة وصناعات وتجارة والثاني تأسيس حكومة منظمة تضمن حياة الاسرة والجماعة ومن القوانين وحماية الحياة والثالث الأخلاق والفضائل والرابع الدين من حيث هو عامل في المدنية يستجند الاعتقاد بما وراء الطبيعة لتسكين الألم وتربية الخلق وحفظ النظام ومداداة الاوهام الاجتماعية والخامس العلم ويراد به النظر الصحيح الى الاشياء وصحة الملاحظة والعمل على جمع المعلومات التي يتكون منها على طول الزمن معارف ينتج منها بعض معرفة

(١) تاريخ التمدن لوال دوران (منقول عن الانكليزية)

تؤثر في مصير المرء وتنفع في مدّة سلطانه على العالم والسادس عامل الفلسفة التي هي من وضع الانسان للوقوف على بعض أمور من هذا النظر الاجمالي من العالم والوصول الى حقائق الأشياء ومعرفة الحق والجمال والفضيلة والعدل المنبعثة من كبار الرجال والحكومات الصالحة والسابع الآداب وبها تفسر اللغة وتربى الناشئة ويرتقي الشعر والتمثيل وينقذ تراث الأجداد من العفاء والثامن الفن والمراد به ترتيب الحياة بالألوان والألحان والأشغال .

سيداتي سادتي « هذا ما يتسع له المقام لوصف المدنية ودرجتنا منها وعسوان يجزل حظنا منها في الجيل القادم فان الأعوام التي قضيناها في تلقف المدنية قليلة بالنسبة للأعوام التي مرت على الغربيين .



أبو العلاء المعري والحشر

حسد العلماء أبا العلاء على فضله

{ خطأ العلامة الزمخشري في قوله على أبي العلاء
خطأ العلامة الباني فيما نسبته إلى أبي العلاء
خطأ الدكتور طه حسين فيما ذهب إليه في أبي العلاء }

جرت سنة الله في خلقه أن لا يرمي من الشجر بالحجر إلا أطيئه ثمراً . وإن
لا يعذب بالسجن من الطير إلا أجملها لوناً أو أطربها صوتاً

وفي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر
وعلى هذه السنة جرى الناس ولا سيما العلماء منهم . فقلنا رأينا رجلاً نبغ
في علم أو ضرب في العبقرية بسهم إلا وقد قبض الله له طائفة من أمثاله يحرفون
كله عن مواضعها ويصرفون أقواله عما يريد منها إلى ما يريدون ويؤولون كلامه
بما يشوه وجه الحقيقة فيها ، كل ذلك ليثيروا عليه الدهماء ويجعلوه عرضة للمؤاخذة
والانتقام وبغضوا من كرامته

ولدينا من رجال التاريخ الوف من العلماء الأفذاذ رموا بالاحاد واتهموا بالزندقة
ونسبوا إلى المروق من الدين وهم أصح عقيدة ممن رماهم واكثر اعتصاماً بالدين ممن
نفاه عنهم . وحسبك دليلاً على هذا ما تراه في أقوال العلماء والمؤرخين في أبي نصر
الفارابي وابن سينا والغزالي وأبي حيان التوحيدي وابن رشد وابن عربي وأمثالهم
ممن رفعوا منار العلم وشيدوا صروح الحكمة

وإذا بحثت عن هؤلاء الطاعنين في أولئك العباقره وتبعت عن الأسباب التي
حملتهم على النيل منهم اتضح لك أن الفئة الطاعنة بين معاصر محمد معاصره
على ما آتاه الله من فضله فهو لا يألو جهداً في الكيد له والافتراء عليه ولا يدخر
وسعاً في إطفاء نوره . ليظهر بذلك فضله ويقوم مقامه

وبين متأخر يجب الظهور على رفات المتقدمين في دفعه الحسد إلى أن يستقط

هفواتهم ويعظم الصغير من عثراتهم ، ويتصرف في حمل اقوالهم على الوجه الذي يعينه على الطعن فيهم ، وهناك فريق من المتأخرين إمعة يتابع كل قائل فيما يقول ويشايع كل راء فيما يرى وهذا من شر الناس على العلماء وأشدهم وطأة على النوابع وربما كان ابو العلاء من اكثر الفضلاء حساداً وربما كان حساده من أشد الناس نقولاً عليه وتحريفاً لأقواله

ولعل القارىء يعد هذا القول ضرباً من الاسراف والغلو فأنا أورد بعض الأدلة على صدق ما اقول حتى لا يظن ظان اني اتعصب لأبي العلاء او اتوسع في الاعتذار عنه او أتزيد للذود عنه . الدليل الأول

ذكر ابن العديم في الانصاف والتحري . ونقله عنه ياقوت في معجم الأدباء ج ١ ص ١٧٩ ان ابا العلاء كان يرمى من اهل الحسد له بالتعطيل ، وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصداً لهلاكه وايتاراً لاتلاف نفسه فقال . . . ثم أورد ابياتاً لأبي العلاء في ذلك .

وذكر ابن العديم ان رجلين كانا يؤلبان عليه وينسبانه الى الكفر والاحاد وقد حرفا بيتاً من لزوم ما لا يلزم عن موضعه ليثبتا عليه الكفر بذلك فكتب رسالة الضبعين الى معز الدولة ثمال بن صالح يشكو اليه ذلك .

وطعن عليه جماعة في أبيات من لزوم ما لا يلزم ونسبوه الى الكفر فوضع كتاب زجر النابج ليرد عليهم ويبين وجوه الايات ومعانيها ثم طعن عليه آخرون في أبيات أخر فوضع كتاب فجر الزجر أو بحر الزجر فيبين التحريف ووجوه الأبيات .

وحسبك من هذا النوع ما قاله جماعة من العلماء في كتابه الفصول والغايات فقد زعموا انه عارض به القرآناً ونسبوه الى الكفر والزندقة والاحاد بسببه

وليس في الكتاب شيء مما زعموا وقد طبع الجزء الأول منه وهو على طرف الثام ممن اراد الالمام به

الدليل الثاني

كان ابو العلاء في بغداد فتوفي الشريف والد الرضى والمرضى فرثاه ابو العلاء

بقصيدة قال فيها

الموقدي نار القرى الآصال والآس حار بالاهضام والاشعاف
حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف
والبيت الثاني من اجل ما قيل في وصف النار وسطوعها في الدجى وتشبيه
الشرارة بالطراف على غاية من الروعة والابداع ثم مضى في وصف النار وصفاً يقصر
عن مثله البصراء ، ومراده من ذلك كله وصفها بالكرم والاطعام وهذا سبيل البقاء
في ذلك العصر والذي قبله

فجاء العلامة الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ وقال في تفسيره الكشف [عند قوله
تعالى انها ترمي بشرر كالقصر] قال ابو العلاء . حمراء ساطعة .

ثم قال فشيها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحمة وكأنه قصد بجنه
ان يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر
يته بقوله حمراء توطئة لها ومناداة عليها وتنبهاً للسامعين على مكانها . ولقد عمي
جمع الله له عمى الدارين عن قوله عن وعلا كأنه جمالات صفرانه بمنزلة قوله
كبيت أحمر على ان في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين من جهة
العظم ومن جهة الطول في الهواء وفي التشبيه بالجمالات وهي القلوس تشبيه من ثلاث
جهات من جهة العظم والطول والصفرة فأبعد الله اغرابه في طرافه وما نفخ شديقه
من استطرافه .

هذا كلام الزمخشري . واذا تأملت ابيات المعري لا تجد فيها تعرضاً لذكر
القرآن ولا معارضة لتشبيحاته ولا شيئاً يتصل بالقرآن او تستم منه رائحة المعارضة .
واذا تأملت قول الزمخشري لا تجد مناسبة لذكر بيت المعري على هذا الوجه
ولا سبباً داعياً اليه ولا تجده في طعنه بالمعري موثقاً . ولذلك انكرت عليه جماعة
من الفضلاء قوله هذا . منهم صدر الأفاضل الخوارزمي فانه نقل قول الزمخشري
ثم قال : ولا ادري من أين له انه قصد الزيادة على تشبيه القرآن فمن المعلوم ان
القصر أعظم من الطراف ولكن الزمخشري مع فضله كان حديد المزاج كثيراً

ومنهم العلامة نحر الدين الرازي فانه ذكر في تفسيره مفاتيح الغيب ج ٨ ص ٣٠٧ بيت المعري ثم قال زعم صاحب الكشف انه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية . وأقول كانت الأولى لصاحب الكشف ان لا يذكر ذلك . ثم ذكر اثني عشر وجهاً يفضل بها تشبيه القرآن على تشبيه المعري بأسلوب ينم على فضل وعلم واجتماع عن الحسد واللؤم

وأنا أقول ان أبا العلاء لما نظم هذا البيت لم تخطر في باله هذه الآية الكريمة ولادارت في خلد معارضتها او الزيادة عليها ولو كان شيء من هذا لتأثر بلفظها او معناها ومن البعيد ان يحاول ابو العلاء معارضة القرآن وهو القائل في رسالة الغفران ص ١٥٨ ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتاب بهر بالاعجاز ولقي عدوه بالارجاز ما حذي على مثال ولا أشبه غريب الامثال ما هو من القصيد ولا الرجز ولا شاكل خطابة العرب ولا مسجع الكهنة وان الآية منه او بعض الآية لتعترض في أفصح كلم بقدر عليه المخلوقون فتكون كالشهاب المتلألئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق .

وبهذا القدر يتضح ان الزمخشري على جلالته فضلته تقول على ابي العلاء وتأول كلامه على وجه لم يكن له به علم ولا رضى وتغاضى عما في البيت من جمال التأليف وروعة التشبيه وان كان دون كلام الخالق في ذلك كله

الدليل الثالث

استشهد جلال الدين القزويني المتوفى سنة ٧٣٩ في بحث تقديم المسند اليه من كتابه تلخيص المفتاح بقول ابي العلاء

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

فقال السعد التفتازاني في شرحه المختصر . يعني تحيرت الخلائق في المعاد الجسماني

والنشور الذي ليس بنفساني بدليل ما قبله

بان أمر الآلهة واختلف الناس فداع الى ضلال وهاد

يعني بعضهم يقول بالمعاد وبعضهم لا يقول به . هذا ما قاله السعد .

ثم جاء العلامة البناني فقال في التجريد ج ١ ص ١٨٨ لا يبعد ان يكون تقديم القول بالمعاد في تفسير البيت [مع ان الظاهر هو اللف والنشر المرتب] ايماء الى ان مراد الشاعر بالداعي الى الضلال هو القائل بالمعاد بناء على ما اشتهر في التواريخ من ان ابا العلاء ملحد منكر للحشر ويومئ اليه بيته المشهور عند من له ذوق سليم وهو قوله

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
ونقل ذلك عن الغزي . فانظر كيف تأول هذان العالمان قول المعري تأولاً فاسداً بناء على ما اشتهر عنه مع انه يصرح في القصيدة التي منها البيت الأول بالحشر بقوله

انما ينقلون من دار اعمى الى دار شقوة او رشاد
والبيت الذي ادعيا ان فيه ايماء لبس فيه ايماء الى انكار الحشر بل صرح بالنار في البيت الذي قبله وهو
تناقض مائتا الا السكوت له وان نعوذ بمولانا من النار
ولا شك ان المراد النار في الآخرة وهو تصریح بالحشر

الدليل الرابع ان ابا العلاء قال في لزوم ما لا يلزم
ضحكنا وكان الضحك مناسفاة وحق لسان البسيطة ان يبكوا
يحطمننا صرف الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك
ونسب اليه جماعة هذه الأبيات

رب الزمان مفرق الإلفين فاحكم إلهي بين ذاك وبينني
انهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت تأخذها مع الملكين
وزعمت أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالين

ومنهم من روى البيتين الأخيرين فقط وفي بعض الروايات اختلاف وليس شيء من هذه الأبيات الثلاثة في لزوم ما لا يلزم ولا في شيء من كتب ابي العلاء التي وصلت إلينا .

فاتخذ جماعة من العلماء من هذه الآيات حجة على كفره وانكاره الحشر وطبع على غرارهم صاحب ذكرى ابي العلاء وزاد عليهم بيتاً آخر استدل به على شك ابي العلاء في الحشر وهو

يا مريحاً بالموت من منتظر ان كان ثم تعارف وتلاق
كما زاد عليهم اذ جعله مرة يثبت الحشر كما في ص ٢٩٤ من تجديد ذكرى
ابي العلاء وثانية ينكره نصاً وثالثة يقف موقف الشك ورابعة يجزم بمذهب افلاطون
وخامسة أنه نفاه اكثر من ستين مرة في اللزوم من غير ان يبين واحدة منها ثم
ختم كلامه بقوله الروح الفلسفي يثبت لنا ان ابا العلاء ان لم يكن قد أنكر
البعث انكاراً تاماً فقد شك فيه شكاً شديداً .

واذا نظر الانسان نظر العاقل المنصف في البيتين الأولين : ضحكنا وكان
الضحك ٠٠٠ لا يرى لها علاقة بالحشر ولا فيها دلالة على اثباته وانكاره وانما
جرت عادة البلغاء ان يعملوا الزجاج مثلاً أعلى في الضعف ومرعة التكرس . وفي
عدم الجبر ومن الأول ما جاء في الحديث الشريف رويك رقفاً بالقوارير أراد
النساء وشبههن بالقوارير من الزجاج لأنها يسرع اليها الكسر
ومن الثاني قول حسان بن ثابت

وامانة المري حيث لقيته مثل الزجاج صدعها لا يجبر

وقد درج ابو العلاء على هذه الطريقة فشبّه الناس بالزجاج في مرعة التخطم
والعجز عن المقاومة والجلد في هذه الحياة الدنيا ومن كان هذا شأنه فيها فنجدير به
أن لا يضحك في دنياه بل يبكي ثم ذكر ان بين الناس والزجاج فرقاً وهو ان
الزجاج يمكن ان يسبك في هذه الدنيا فيعود الى حاله الأولى والناس لا يمكن
ان يجبروا فيها اذا حطمهم الزمان بالموت . هذا ما يدل عليه هذا اللفظ

ومن البديهي ان الزجاج لا يسبك في الآخرة وان المعري لا يريد هذا المعنى
وليس في الكلام ما يدل على الآخرة او يتعلق بها وانما هو تحذير من الدنيا وبيان

لنسلط صروفها القاسية على الناس . فتعين ان يكون المراد ان ليس لنا سبك في الدنيا بعيدنا الى حالتنا الأولى فيها وبهذا يخالف الزجاج . وهذا قول حق لاريب فيه . ونظيره قول ابي العلاء في لزوم ما لا يلزم

أرى الشهد يرجع مثل الصبر فما لابن آدم لا يعتبر
وخبره صادق في الحديث فان شك في ذلك فليختبر
وجبر وكسر له في الزمان ويكسر يوماً فلا ينجبر

وهذا يوضح المراد من البيتين الأولين لأن قوله وجبر وكسر في الزمان يدل على انه يريد بقوله لا ينجبر في الدنيا ومن قبيل قول ابي العلاء هذا قول علي ابن ابي طالب [ض] فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل فانه لا يرجي من رجعة الصرما يرجي من رجعة الرزق . وقوله أيضاً . أولم تروا الى الماضين منكم لا يرجعون . . . فان المراد الرجعة في هذه الدنيا والا كان علي [ض] منكراً للحشر وقد استعمل ابو العلاء سبك الزجاج في مواطن كثيرة من شعره كقوله

تحفظ بدبتك يا ناسكاً يرى انه راجع ما خسر
فلست كغيرك أطلقت في حياتك بل انت عان أمر
وللسبك رد كسير الزجاج ولا يسبك الدر ان ينكسر

وقوله

يسبك الصائغ الزجاج ولا يس طيع سبكاً للدر ان يتشظى

وأعاد هذا المعنى بقوله

خف يا كريم على عرض تعرضه لعائب فلتيم لا يقاس بكا
ان الزجاج لما حطمت سبكت وكم تكسر من در فما سبكاً
وهو في جميع هذه الآيات واشباهها يشير الى ان النفيس اذا كسر لا يجبر بخلاف غيره ومن البين انه لا يريد كسراً ولا جبراً في الآخرة وانما يريد في الدنيا .

وأما الآيات الثلاثة التي على روي النون فان اسلوبها يدل على انها مصنوعة

على لسان المعري وانها ليست من سنخ شعره . ومن البعيد عن أدب المعري ان يقول فاحكم إلهي . . . ثم يقول . . . أنييت عن . . . وزعمت . . . اذ لم نر في كلامه الذي يخاطب ربه به مثل هذا النمط . . . واذا سلمنا انها من كلامه فهي وان دلت على اساءة ادب في الخطاب لا تدل على انكار الحشر وانما تدل على اثباته لأن قوله ما كان اغناها عن الحاليين صريح في اثبات الحاليين لها واحدهما المعاد الثاني وهو الحشر

وأما البيت الأخير الذي استدل به صاحب الذكري على الشك فانه من قصيدة مطالعها

أما الحقيقة فهي اني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاق
ثم قال فيها

سينموت محمود ويهلك آلك كيدهم وجه الواحد الخلاق
بامرجباً بالموت لمن ~~منتظر~~ أن كان ثم تعارف وتلاق
وليس في البيت تصريح بانكار الحشر او الشك فيه وانما الشك في التعارف والتلاقي وهما غير الحشر اذ قد يجوز ان يكون الحشر ولا يكون فيه تعارف وتلاق فلا يلزم من الشك فيها الشك فيه فهو نظير قول النابغة
لامرجباً بقدر ولا أدلاً به ان كان تفريق الأُحبة في غد

فانه يفيد الشك في التفريق لا في غيره . وبعد هذا فان بيت ابي العلاء مسوق للترحيب بالموت على تقدير ان يكون هناك تعارف وتلاق ومفهوم هذا انه اذا لم يكن شيء منهما فانه لا يرحب بالموت . وهذا لا يوجب شكاً في البعث ولا في غيره وقوله في مطلع القصيدة . والله يعلم بالذي أنا لاق واضح في انه يريد ما يلقاه في الآخرة لأنها دار الجزاء فهو جازم باللقاء وان جهل عين ما سيلقى

ولقد فتشت فيما انتهى اليّ من كلام ابي العلاء في جميع اطوار حياته فلم أر فيه ما يدل على شك في البعث او انكار له وانما رأيت فيه مئات من المواطن التي

صرح فيها بالحشر والنشر والقيامة والحساب والجنة والنار ونحو ذلك مما يتصل بالآخرة

من ذلك قوله في سقط الزند ج ١ ص ١٤٠

فلو زار أهل الخلد عتبك زورة لأوهمهم ان الجنان جيم

وقوله ص ١٩٤

فيا ليت شعري هل يخف وقاره اذا صار أحد في القيامة كالعين

وهل يرد الحوض الروي مبادراً مع الناس ام يأبى الزحام فيستأني

. . .

وما استعذبه روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنني عدن

وقوله ص ٢٠٨

ولا تنسني في الحشر والحوض حوله عصائب شقي بين غمر الى بهم

لعلك في يوم القيامة ذاكري فتسأل ربي أن يخفف من إثمي

وقوله ص ٢١٠

انما ينقلون من دارهم اعمام ل الى دار شقوة اورشاد

وقوله في ج ٢ ص ١٢

جازاك ربك بالجنان فهذه دار وان حلفت تغر بسحتها

ضل الذي قال البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كنيبتها

وامامنا يوم تقوم هجوده من بعد ابلاء العظام ورفتها

وقوله ص ٦٠

نبذت مفاتيح الجنان وانما رضوان بين يديه للالتفاف

وقوله ص ٥٤

فان استطع في الحشر آتاك زائراً وهيئات لي يوم القيامة أشغال

وقوله ص ٨٩

سألت متى اللقاء فقليل حتى يقوم الهامدون من الرجام

فليت أذنين يوم الحشر نادى فاجشئت الرمام الى الرمام
وقوله ص ١١١

فلا كان سيرى عنكم سير ملحد يقول يباس من معاد ومرجع
وقوله ص ١٢٠

فان لقيت وليداً والنوى قذف يوم القيامة لم أعدمه تبكيئا
وقوله في الدرعيات ص ١٧٦

لعله ان يجي مدرعا يوم رجوع النفوس في الرم
وقوله ص ١٧٧

او عمل الكفر من يدين به في البعث إبان مجمع الأمم
وقوله ص ٢١٦

فلا تستكثر الهجات فيها فأعراس بتلك دخول جنة
وفي ملق السبيل كثير من ذكر الآخرة والجزاء في النظم والنثر
كقوله

نمت عن الأخرى فلم تنبته وفي سوى الدين هجرت الكرى

وقوله : وفي الآخرة يكون المجمع . وقوله : والنهج للآخرة يسلك .
وقوله : ولافتهم الآخرة بما نوا .

وكتاب الفصول والغايات طافح بما يدل على الآخرة وما فيها كقوله لله الغلب
واليه المنتقل : وقوله . تارك الصلاة من صلاة السعير . وقوله : كفيني رب
شقاء الدنيا فاكفني شقاء الآخرة . وقوله : الشقي من حضر عرصات القيامة .
وقوله : واجد ثوباً للآخرة تكتسيه .

وفي رسالة الملائكة تصدى في مواطن كثيرة لذكر الملائكة والجنة ونحوها
كقوله ص ٧ ام تراني أدارى منكراً ونكيراً . وقوله : ص ١٦ قصرت أعمالهم
عن دخول الجنة وقوله : ص ١٧ فيقول رضوان وقوله ص ٢٠ يشربون ماء
الحيوان في النعيم المقيم

وقوله : ص ٢٣ وان كان اهل الجنة ٠٠٠

وأما رسالة الغفران فكل ما فيها أدلة وبراهين على اقراره بالبعث والحشر والجنة والنار وما الى ذلك

ولم تخل رسائله الى اهله وأصحابه وغيرهم من ذكر الآخرة وما يتصل بها فقد قال في رسالة المتبحر ص ٩ اقبلتنا جنان ٠٠ أم نشروا بعد ما قبروا أم جزوا الغرفة بما صبروا ٠٠٠

وقال في رسالته الى خاله ص ٦٧ وترجع في الحشر وزنا ٠ وفي رسالة ثانية اليه ص ٦٩ وحزني لفقدتها كنعم أهل الجنة وفي رسالته الى ابي عثمان النكفي ص ١٥٢ نقله الله ٠٠٠ من دار الشقاء الى دار النعيم والبقاء

وفي رسالة الى خاله ص ٢٠٩ فقد ورد مع الحور العين كأشاً كان مزاجها كافورا ٠٠٠ جاور ربه في دار الحيوان تلك الدار الآخرة ٠٠٠

وفي جوابه الى داعي الدعاة بمصر ذكر الآخرة وتعوذ بالله من قول من أنكرها ولعن الوليد بن يزيد لقوله الذي انكر فيه البعث والجنة ، كما ذكر ذلك ياقوت في معجم الأدباء ج ١ ص ٢٠٠ وص ٢٠٨

وأما لزوم ما لا يلزم فهو أكثر كتبه مظنة أن يكون فيه انكار أو شك لأنه اطلق للسانه فيه العنان وأعطى عقله فيه الحرية المطلقة وأوضح فيه عن كثير من آرائه الفلسفية وقد زعم صاحب الذكري ان ابا العلاء نفى البعث فيه أكثر من ستين مرة ولكنه لم يبين مرة منها ولم يعين موضعاً لواحدة منها فيه كما قلنا

وأنا اقول ان ابا العلاء اثبت فيه الحشر وما يتعلق به مما يكون بعد الموت الى دور الخلود في أكثر من مائة موضع واستدل على امكان بعض منه وهذه امثلة من كلامه في ذلك

القبر وما فيه

خلصني من ضحك ما انا فيه واطرحني لمنكر ونكير
فهل هو خاش من نكير ومنكر وضغطة قبر لا يقوم لها نظم

الجزء

لا يأسن من الثواب مراقب لله في الايراد والاصدار
فترى بدائع أنبات متحسناً ان الجزء بغير هذي الدار
الصور

مضت قرون وتمضي بعدنا أم والسر خاف الى ان يتفخ الصور
الصحائف
وجاءت صحائف قد ضمنت كبار آثامهم واللمع
الحساب

وراعني للحساب ذكر وغرني انه بعيد
وعن يميني وعن شمالي يصحبي حافظ بعيد
السراط

وكان هذا الخلق أهل جهنم ولهم من الموت الزوام سراط
الميزان

أكذب القوم بالميزان أن سمعوا ان القيامة فيها عادل يزن
وقد وجدنا مقال الناس ذا زنة فكيف ينكر ان الفعل يتزن
رضوان

وان كفتني عذاب الله مغفرة فما احاول منها فوز رضوان
مالك

يارضو لا أرجو لقاء لك بل اخاف لقاء مالك
طوبى

فان خرجت الى بؤسى فواحرجي وان نقلت الى نعمى فطوبى لي
جنة الخلد

وما اظن جنان الخلد يدركها الا معاشر كانوا في النقي جهدا
جنة عدن

فان جنة عدن لا يجاد بها الا لصاحب دين في أذى عدنا

جنة النعيم

وما سرفني اني اصبت معاشرآ بظلم وأني في النعيم مخلد

الناار

أصبح في الدنيا كما هو عالم وأدخل نارآ مثل قيصراو كسرى

سقر

ان عوضوا عن ذنوب اسلفت سقرآ فلم ترمهم على علانها سقر

السعير

أترجين من إلهك عفواً وتخافين في الحساب السعيرا

جهنم

جنان ورضوان الذي هو مالك لها حنك بني مالكا وجهنا

الهاوية

هاوية نفسك ما ساءها فلتخش ان تلقى الى الهاوية

حسي من الجهل علمي ان آخري هي المال واني لا أراعيها

وان دنيائي دار لا قرار بها وما أزال معنى في مساعيها

كيف لي ان اكون في داري الأخ رى معافي من شقوة مستريحا

وقدرة الله حق ليس بمعجزها حشر خلاق ولا بعث لأموات

يكر موتانا الى الحشر ان قال لهم بارئهم ككروا

بمحكمة خالقي طيبي ونشري وليس بمعجز الخلاق حشري

فيا ليتني في الثرى لا اقوم ان الله ناداكم او حشر

لا خير للمرء الا خير آخرة يبقى عليه فذاك المز والشرف

ولولا خشية الإطالة لأتينا على ذكر عدد عظيم من الشواهد من كلامه في

هذا الموضوع مما ذكره في لزوم مالا يلزم وقد ذكرنا في كتابنا التعريف بأبي العلاء أكثر من مائة يت صرح فيها كلها بذكر الحشر وما فيه وليست هي جميع ما في لزوم مالا يلزم بل هناك عدد كبير لم نذكره

وبعد هذا يمكننا ان نستنتج مما تقدم أربعة أمور

الأول : ان ابا العلاء مؤمن بالحشر مقر بكل ما يتعلق به على وفق ما جاءت به الشريعة الاسلامية وان ليس في كلامه تصريح بالشك او الانكار في جميع اطوار حياته وجميع آثاره التي ذكرناها

الثاني : ان بعض العلماء حكم عليه بالالحاد او انكار الحشر او نحوهما اما عن حسد او تقول او طلب شهرة او متابعة لما قيل من غير ثبوت ولا استناد الى دليل ومثل هؤلاء مثل الرجل الذي مرّ في سوق يحمل باحدى يديه خبزاً وبالأخرى لبناً فرأى أناساً يضربون رجلاً فوضع ما كان في يديه وأقبل على المضروب فأشبعه ضرباً وسباً ثم عاد فحمل طعامه وادامه فقال له رجل : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : اني لا اعلم الرجل المضروب ولكني رأيت هؤلاء يضربونه فقلت لولا انه يستحق الضرب لما ضربوه فثار كتمهم في عملهم

الثالث : ان الزمخشري والبناني لم يوفنا فيما تقولا او تأولا على ابي العلاء

الرابع : ان مانسبه صاحب الذكرى الى المعري من الشك او الانكار قائم على الوهم المجرد وحسبنا ان نجتزئ بهذا القدر فان فيه مقنعاً للرتاب

سليم الخدي

المرأة في عهد النبوة ، وفي عصرنا الحاضر

كان امر المرأة في تاريخ العالم القديم والحديث عجباً ، كانت تشرى وتباع ، وتكره على الزواج والبغاء ، وكانت تملك وتورث ، وتصرف فيها الرجل على هواه كأنها سلعة ، او كأنها كرة بين ايدي الرجال ، ولم تكن الأم الأخرى أقل اضطهاداً لها ، او امتهاناً لها من عرب الجاهلية ، وليس هذا موضع تفصيل تاريخها عندهم وإنما الكلام فيما كانت عليه قبل الاسلام وفيما ارتقت اليه بعده .

كان العرب في العهد الجاهلي فريقين : منهم من عبد المرأة بعد ان جعلوا الملائكة إناثاً ، وجعلوها بناتٍ لله ، ومنهم من وأدعا ، أو أبقاها فاضطهدوا ، وما ورد في القرآن الكريم أصدق مثال للحال التي كانت عليها العرب قبل الاسلام ، فهو يقصُّ علينا كيف عبدوا الأنثى ، ومن آياته في ذلك قوله تعالى « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون » وقوله « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً : أشهدوا خلقهم ، ستكتبُ شهادتهم ويسألون » وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا بخرصون » فهم لم يعبدوا الملائكة حتى جعلوها بناتٍ ، وجعلوها إناثاً ، وقال في التريق الآخر الظالم الآثم : « وإذا بُشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » وقال : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت »

فهذه الطفلة التي كانت تعيش ذليلةً مهينة ، او مُتدَسِّة في التراب حيةً دفينه ، ستقول : يا رب ، قتلت بلا ذنب .

هذان طرفان ذهبان من معاملة الأنثى في الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أبطلهما معاً ، ومنحها حقوقها ، وعمرَّها واجباتها ، وأنزلها المنزل اللائقة بها ، وآية « ولئن مثل الذي عاينَ بالمعروف وللرجال عليهن درجة » لا يوجد في أرقى الشرائع القديمة

والحديثه قانون أعدل ولا أجمع منها ، إذ قد سادت بين الرجل والمرأة في الحقوق الواجبات ولم تعين هذه الحقوق والواجبات لأنها تتبع العرف ، وتختلف باختلاف الطبقات ، والشرائع والعادات ، وخصت الرجل بدرجة الرئاسة إذ لا بد لكل جماعة أو أسرة من نظام ، ولا بد لكل نظام من رئيس منفذ ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه ، لأن له من القدرة على الرعاية والحماية والكسب والإتياف ما ليس لها ، وهذا المراد من الآية الكريمة « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من أموالهم » لكن هذه الرئاسة رئاسة شورية لا استبدادية ، ودليلها من القرآن قوله تعالى في شأن الزوجين وطفلهما الرضيع وفطامه « فان أرادا فصلاً عن تراض مشورا وتشاور فلا جناح عليهما » فهذا نص صريح في إقامة سنة الشورى بين أعضاء الأسرة الواحدة ، فالإسلام نهى عن عبادة المرأة ، ولم يستعبد لها كما فعلت الأمم السابقة ، ولم يقلب نظام الطبيعة ليحول منها رجلاً ثانياً كما فعل العصر الحديث ، فقد تخلى عنها الأب والأخ والزوج والابن ، ودفعوها جميعاً في تيار العمل والهوى خارج المنزل ، فاختل نظام البيوت ، ولا تزال نسمع الشكوى المرأة في الاذاعات العامة المرة بعد المرة ، من تقوض دعائم الأسرة والوطن .

أثر المرأة في الحروب الجاهلية والاسلامية

لم تفقد المرأة بعد الاسلام شيئاً من مكانتها الأدبية . لاشجاعتها الحربية ، ولكن الاسلام وجهها وجهة صالحة ، ونفخ فيها روحاً جديداً لم يكن لها من قبل . كان القتال الجاهلي حروباً أهلية داخلية ، وكان فيها إضعاف للأمة ، وتفريق لوحدها ، وهدم لقواها ، ومنهم من كان يُصرح بأنه يشهد الوغى لا لغرض سوى شهود اللذات ، أو اليأس من الحياة ، كقول طرفة :

ألا أهبذا الزاجري احضر الوغى وانت أشهد اللذات هل انت مغلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منبئي فدعني أبادرها بما ملكك يدي
وعنبرة الذي يتنزل بعبلة ويحاول ان يسترضيها بوقائعه ومشاهده فيقول :

ولقد ذكرتكم والرماحُ نواهلُ مني وبيضُ الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسّم
وكانوا إذا ساروا للحرب صحبوا نساءهم اجفاء الحفيظة واتقاء الفرار، وأخذوا
معهم القيان والدفوف والمعازف والخمور، ومنه ما وقع في غزوة أحدٍ فانه لما التحمت
الصفوف واشتدت الحرب قام النسوة وأخذن الدفوف يضررن خلف الرجال ويُنشدن
الأشعار تهيبجاً لعواطفهم، وكُن عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء قال :
اللهم بك أجول، وبك أصول، وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل»

ويظهر لنا الفرق واضحاً بين هذه الأهداف القاصرة وبين الهدف السامي الذي
جاء به الاسلام وهو اعلاء كلمة الله : أي نصرة الحق على الباطل ، والفضيلة على الرذيلة ،
والتوحيد على الوثنية ، واين ذكرُ عنبرة لعلبة حين اشتداد القتال من ذكر الله في
قوله « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »
فالثباتُ من اسباب النصر والظفر ، وذكرُ الله قوة معنوية تثبت القلوب من
ناحية ، وتبعثُ فيها الرحمة من ناحية أخرى ، فالذاكر لله لا يقاتلُ أجداً ولا اعتداءً ،
ولا يقاتل من لا يقاتل كالنساء والصبيان والشيوخ والمرضى ومن ألقى السلم وكفَّ
عن الحرب .

كان تألق نور الاسلام له اثر في تطور الحياة العربية الفكرية والاجتماعية
والأدبية والسياسية ، وها نحن اولاء نقنصر الآن على ذكر المرأة العربية في العصر
النبوي بعد ان وصفنا عملها في الدور الجاهلي .

كان تعلم العلم الديني في عهد النبوة عاملاً للكبار والصغار والذكور والاناث ،
فكان النساء يتدارسن القرآن ، ويروين الأحاديث ، ويُحافظن على العبادات ،
ويصلين صفوفًا في المساجد ، ويستمعن الخطب والمواظع ، ويحضرن صلاة العيدين في
المصلى العام ، ويسافرن لأداء فريضة الحج والعمرة ، بل كن أيضاً يشهدن الحروب ،
ويهيئن للمجاهدين الطعام ، ويسقينهم الماء ، ويغسلن الثياب ، ويضمدن الجروح ،
ويشتركن في الجهاد أحياناً .

نعم إن الشريعة لم توجب على المرأة حضور الجماعة والجمعة إيجاباً ، ولم تفرض عليها القتال مع الرجال ، وحماية الديار ، والدفاع عن الحق بالقوة ، وإنما خصت الرجال بذلك كله لأن للمرأة من نظامها الفطري ، واختصاصها المنزلي ، ما يعوقها عن مشاركة الرجال في كل حين يمثل هذه الأعمال ، ومن اكبر موانعها الحمل والولادة وحضانة الأطفال وإعدادهم رجالاً للمستقبل ، وإدارة شؤون المنزل .

وأما عملها الحربي الاسلامي ، فيظهر الفرق بينه وبين عمل النساء الحربي الجاهلي ، بما قامت به في وقعة أحدٍ نفسها بطلّة الحروب والوقائع العريية الإسلامية ، الصحابية الجليلة أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية الشهيرة ، واليك الحوار الذي دار بينها وبين أم سعد بنت سعد بن الربيع ، قالت أم سعد : دخلت عليّ أم عمارة فقلت يا خالة : اخبريني خبرك ، قالت : خرجت اول النهار ، وانا انظر ما يصنع الناس ، وبعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في اصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت أباطر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمي عن القوس حتى خلعت الجراح اليّ ، فرأيت على عاتقها جرحاً اجوف له غور ، فقلت من اصابك بهذا ، قالت ابن قنثة أقام الله (اذله واصغره) : لما ولّى الناس عن رسول الله اقبل يقول : دلوني على محمد فلا نجوت ان نجا ، فاعترضت له انا ومُصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله فضرِبني هذه الضربة ، ولكني ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كان عليه درعان . وقد اثني الرسول على شجاعتهما فقال : ما التفت يوم أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلا ورأيتهما تقاثل دوني .

شهدت بيعة الرضوان ، ثم شهدت وقعة اليمامة فقاتلت حتى قطعت يدها ، وجرحت اثني عشرة جراحة . وكانت فوق ذلك كله محدثة جليلة روى عنها ابنه اعباد بن نعيم ، ومولاتها ليلى ، وعكرمة ، والحارث بن كعب ، وأم سعد ، وحديثها في كتب السنن الاربعة .

وبمثل ما قامت به ايضاً خولة اخت ضرار بن الأزور الكندي التي كانت اشجع

نساء العرب في عصرها ، وكانت تشبه بختالد بن الوليد في حملاته ، بل ظنّها أناس في بعض وقائعها خالداً ، بل خالد نفسه كان معجباً بفرط شجاعتهما ، وما ظهر من خلالها وشمائلها ، ولها اخبار كثيرة في فنوح الشام ومما حدث به الواقديّ انه لما أمر اخوها ضرار بن الازور في وقعة اجنادين سار خالد بن الوليد في طليعة من جنده لاستنفاذه . فبينما هو في الطريق ، مرّ به فارس معتقل رحمه ، لا يبين منه الا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على ما وراءه . فلما نظره خالد قال : ليت شعري من هذا الفارس ؟ وايم الله انه لفارس ! ثم اتبعه خالد والناس من ورائه ، حتى أدرك جند الروم ، فحمل عليهم ، وأمن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم ، حتى زعزع كتابهم ، وحطم مواكبيهم ، فلم تكن غير جولة جائل ، حتى خرج وسمانه ملطخ بالدماء . وقد قتل رجالاً ، وجندل أبطالا ، ثم عرض نفسه للموت ثانية ، فاخترق صفوف القوم غير مكترث ، وخامر المسلمين من القلق والاشفاق عليه شيء كثير . وظنه أناس خالداً . حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة : من الفارس الذي تقدم أمامك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ، فقال خالد : والله لأنّا أشدّ إنكاراً وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله ، وبيننا القوم في حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الناقب ، واخيل تعدو في اثره ، وكما اقترب احد منه الوى عليه ، فأهمل رحمه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ، ورفع لثامه ، وناشدوه ذلك خالد ، وهو امير القوم وقائدهم ، فلم يحجر جواباً ، فلما أكثر خالد اجابه وهو ملثم فقال : ايها الامير اني لم اعرض عنك الا حياء منك ، لأنك امير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور ، وانما حملني على ذلك اني مُحَرَّقة الكبد ، زائدة الكد ، فقال خالد : من أنت ؟ قالت انا خولة بنت الازور . كنت مع نساء قومي ، فأتاني آت بأن اخي امير . فركبت وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم .

أدب المرأة وصبرها قبل الاسلام وبعده

كان لוחي الله المعجز سلطان على روح المرأة العربية ووجدانها ، وكان إيمانها عدتها في الحروب والفجائع وعتادها ، فهو يفرغ على قلبها نعمة الصبر والثبات ، وبعدها اذا كانت فائقة واجدة بالجزاء في دار الرضوان ، وقد ظهر الفرق محسوساً بين حالتها في الجاهلية والاسلام . هذه الخنساء بنت عمرو بن الشريد الشاعرة المشهورة التي كانت تقول في اول امرها البيتين او الثلاثة ، فلما قتل شقيقها معاوية بن عمرو وقتل اخوها لأبيها صخر ، اكثر من الشعر حتى سارت بقصائدها الركبان ، واشتهر نواحها على صخر حتى غدا مضرب الأمثال ، وصارت هي اشهر شواعر العرب فمن ذلك قولها فيه :

ألا يا صخرُ لا انسالكِ حتى أفارق مهجتي ويُشَقَّ رمسي
يذكرني طلوعُ الشمسِ صخرًا وأبكيه لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي من المتفجعين قتلتُ نفسي
ومن شعرها فيه :

ألا يا صخرُ ان ابكيت عيني فقد اضحكنتي دهرًا طويلاً
ذكرتك في نساء معولات وكنتُ أحق من ابدى العويلا
دفعت بك الجليل وانت حيُّ فمن ذا بدفع الخطب الجليلا
إذا قبج البكاء على قتيلٍ رأيت بكاءك الحسن الجليلا

وقد قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم مع قومها من بني سليم ، فأسلمت معهم ، فذكروا ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يستنشد الشعر فيعجبه شعرها وهو يقول :
هيه يا خناس وبومي ييده ، حضرت الخنساء حرب القادسية ومعها بنوها اربعة رجال ، فوعظتهم ، وحرضتهم على القتال ، فلما أصبحوا باشرروا القتال واحداً بعد واحد حتى قتلوا فبلغها الخبر فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وارجو من ربي ان يجمعني بهم في مستقر رحمة

علم النساء في العصر النبوي

وكما كانت المرأة العربية في الحرب صاحبة سيف وسمان ، وفي السلم ربة برهان وبيان ، كانت في حلقات الدروس تشاطر الرجل كل علم ، وتضرب معه بأوفر سم ، وفي اوقات العبادة حمامة المسجد ، ومحدثات النساء في عهد النبوة وما بعده كثيرات جداً ، وانك لتجد اسماءهن مدونة في كتب طبقات المحدثين وغيرهم .

وقد استغرقت المحدثات المجلد السادس من مسند الامام أحمد بن محمد بن حنبل الا قليلاً ، ومسند السيدة عائشة - أي الاحاديث التي سمعتها وروتها - قد بلغ وحده اكثر من خمسين صفحة بعد المائتين [ص ٢٩ - ص ٢٨٢] . وقد تسلسل العلم في بعض البيوتات في السيدات حتى صارت الواحدة تروي أحاديث النبي عن امها وجدتها ، ومن شواهد ذلك ما رواه الامام ابو داود في سننه قال : حدثنا محمد بن بشار ، حدثني عبد الحميد بن عبد الواحد ، حدثني ام جنوب بنت نُميلة عن ام سويدة بنت جابر عن امها عقيلة بنت أسمر بن مضر : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من سبق الى ما لم يبق اليه مسلمٌ فهو له قال : فخرج الناس يتعادون ويتخاطون ، اي كل منهم يسبق صاحبه بالخط ^(١) وهذا الحديث يوضح لنا كيف كانت المسلمات راويات محدثات وكيف كانت الفتاة العربية المسلحة تحفظ السنة وترويها عن امها وجدتها وهي في العقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق والآداب وبهذه العلوم النافعة ، كانت تعنى النساء والفتيات العربيات في عصور الاسلام الزاهية ، فهل نجدد بذلك عهداً ونعيد لنسائنا وبناتنا ما فقدنه من تراث ديني أدبي تلكم هي اوصاف العربيات المسلمات في عهد سلفنا الصالح ، وفي ظلال العلوم والآداب الإسلامية فما حال المجتمع الاسلامي اليوم ، وما شأن المرأة العربية في عصر المدنية الحديثة ؟

(١) يتخاطون : اي يملكون على الارض علامات بالخطوط ، تسمى المخطط واحدتها خط ، وهي الأرض يخطها الانسان لنفسه ، ويخط عليها خطأ يعلم انه اختارها

المعاملات في عصرنا الحاضر

لا يستطيع منصف أن ينكر النهضة الحاضرة فان الفتيات في عصرنا هذا يحملن الشهادات الابتدائية والثانوية، ومنهن من نالت الشهادة العالية في العلوم أو الآداب أو الحقوق أو الطب أو شهادة التخصص بالفلسفة والتربية، ولكننا لا نرى الشهادات المدنية ما ياتلها أو يداينها في دروس الدين. فان قيل وأين تخصص الفتاة الحاملة لشهادة العالمية أو الحقوق مثلاً في العلوم الدينية؟ فالجواب من وجهين: (١) مطالبة الحكومة بافتتاح فرع التخصص الديني الذي كانت اعتزمت انشاء وجعله فرعاً للجامعة السورية، ونفقاته قليلة، وفوائده جزيلة، ومطالبتها أيضاً بانشاء الكلية الشرعية الإسلامية التي اجمع طلاب المعاهد الدينية والمدنية على المطالبة بها، ثم أبدى بمطلبهم هذا مؤتمر الجمعيات الإسلامية وعززته بكتاب بعث به الى الحكومة ولعلها محققة للأمة هذا المشروع العظيم الذي يكون له إذا تم — كما قالوا — أثر الأثر في البلاد العربية وفي الشرق عامة ان شاء الله

(٢) إن الأزهر الشريف قد افتتح كليات التخصص الديني وجعلها لأبناء المسلمين عامة لا للمصريين خاصة، فمن السهل على بناتنا من حاملات (البكالوريا) ولا سيما المجازات بالحقوق ان يصبحن بعض ذوي المحارم الى مصر وينهجن من معين الشريعة الصافي وبعدن رافعات ألوية الدين والعلم والإصلاح

كان النساء في صدر الاسلام على علم بدينهن، وماهن وعليهن، أما نساء عصرنا فهن يسألن ويستشكن مسائل كانت يرحى منهن انفسهن الجواب عنها مثل شهادة المرأة وميراثها ودينها، ومثل تعدد الزوجات (او عدم المساواة كما يقال) ويسألن عن الحكمة في كون ازواج الرسول اكثر من اربع، وأمثال هذه المسائل، ونحن نحبب عنها بإيجاز:

شهادة المرأة

المرأة إنسان كامل كالرجل لها من الحقوق مثل ماله وعليها من الواجبات مثل ما عليه كما تقدم . ثم ان للمرأة من طبيعة الأنوثة ونظام الفطرة أموراً خاصة بها ، كتدبير المنزل وإدارة شؤونه ، كما ان للرجل خصائص لا تشاركه هي فيها كاحتمال المشاق ، والدفاع عن الحق بالقوة ، وبهذه الخصائص والمزايا التي انفرد كل نوع من الذكور والاناث ببعض منها ، كانت الأنثى أنثى ، والرجل رجلاً .

وان من المسائل التي لا تماثلها فيها مسألة الشهادة ، فانها تارة تكون شهادتها مثل شهادته ، وطوراً تكون أقل من شهادته ، وأحياناً تقبل شهادة النساء منفردات عن الرجال ، بل تتعين عليهن الشهادة وحدهن ، وذلك في الأمور النسائية التي لا تعلم الا من جهتهن . وقد راعى الاسلام في ذلك كله الحكمة ، ومشى مع المصلحة العامة التي تراعى في كل زمان ومكان .

فأما مسألة الشهادة على المال فالأصل فيها آية المدابنة وهي في أواخر السورة الثانية (سورة البقرة) « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه » الى قوله : واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترصون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » فقد علل إقامة الشهيدين مقام الرجل الواحد بالخطأ الذي يعرض لمن فيما ليس من شأنهم أن يذكرنه ، لأنه شهادة على أمر مالي ، وليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ، ومن طبيعة الانسان أن يكثر ذكره لما يعنى به وبهمه أمره ، ولا يرد علينا اشتغال بعض النساء في هذا العصر في الأمور المالية او في غيرها من أعمال الرجال كالمهندسة والحقوق والزراعة والميكانيك وكالات الخراف في سلك الحكومة ، فان هذا خروج على نظام الفطرة والأسرة ، وتضييع لمصالح المنازل

والأزواج والأولاد ، كما هو مشاهد محسوس ، وكما نسمع الشكوى المرة من يتخبطون في بحران هذه الفوضى .

وأما ما كان من شأن النساء ان يذكرنه ولا ينسينه ، وهو من خصائصهن فقد قبل فيه رسول الله شهادة امرأة واحدة ، وثبت في الصحيح عنه أنه سأله عقبة بن الحارث فقال اني تزوجت امرأة فجاءت أمة سوداء فقالت انما أرضعتنا ، فأمره بفراق امرأته ، فقال : إنها كاذبة ، فقال : دعها عنك ، فهذا الحديث صريح في قبول شهادة المرأة الواحدة وان كانت أمة وكانت شهادتها على فعل نفسها في أمر الرضاع ، والنبي لم يهتمها بالخطأ ولا بالنسيان على تراخي العهد وطول السنين .

وأيضاً فان الشريعة السمحة المنتظمة لمصالح البشر تقبل شهادة النساء منفردات عن الرجال ، في الأمور الخاصة بهن ، والتي لا تعلم الا من جهتهن كالأعراس والمآتم والحمامات ، وكالولادة والرضاع ونحوها من الأمور التي تنفرد النساء بالحضور فيها والاطلاع عليها ، فان شهادة النساء وحدهن مقبولة فيما يقع في تلك المجتمعات ، حفظاً للحقوق وضبطاً للشؤون . ومتى كانت المرأة بمن يوثق بدينها وأمانتها كان المقصود بخبرها حاصلًا كما يحصل بخبر الرجل ، وقد نقل الشيرازي في ج ٢ من كتابه الكبريت الأحمر عن الشيخ محي الدين ان المرأة تلحق الرجال في الأبوة ، وتلحقهم أيضاً في بعض المواضع فنقوم مقام الرجلين ، ويقطع الحكم بشهادتها كما يقطع بشهادة الرجلين ، وذلك في قبول الحاكم قولها في مدّة عدتها ، وقبول الزوج قولها : ان هذا ولده ، فقد تنزلت ها هنا مقام شاهدين عدلين ، كما تنزل الرجل في شهادة الدين منزلة امرأتين ، فتدخل في الحكم ، فهذه تولية لها من الله

ميراث المرأة

وأما الميراث فيقال فيه ما قيل في الشهادة أيضاً ، وهو انه يكون لها نصف ميراث تارة ، ويكون ميراثاً كاملاً كميراث الرجل تارة أخرى ، والباحث في

مسألة الميراث من الوجهة الاسلامية ينبغي ان يذكر قبل كل شيء ان الاسلام لم يجعل من المرأة رجلاً ثانياً ، فيحملها أعباء الحياة الخارجية ، بل حافظ على عملها الفطري ، ونظامها المنزلي ، وفرغها لتدبير مملكتها الداخلية ، وجعل الرجل كافلاً لها ، فهي ليست مجبرة على الكسب والنفقة بنتاً ولا زوجاً ولا أمّاً ، بل الرجل هو الذي يتفق عليها زوجاً وأباً . وأما مالها الذي يتكوّن لها من الارث والمهر والاستثمار فهو يبقى لها (رأس مال احتياطي) تنفق منه اذا اضطرت اليه . ثم ان ميراثها الذي هو نصف ميراث الرجل هو في الحقيقة خير لها وأبقى من ميراثه الكامل ، فان نصيب الرجل يكون مقسماً بالنفقة ما بين زوجته وولده ، ويكون نصيبها لها وحدها كاملاً غير منقوص ، ولكن الاسلام لم يظلمه في ذلك لأنه هو العامل الكاسب ، أما هي فيعوقها عن الكسب تلك العوائق الزوجية كالحمل والولادة والأمومة والحضانة ، وأما مالها الخاص فقال احتياطي تنفق منه متى احتاجت اليه كما قدمنا . على أنها أحياناً يكون لها مثل الرجل كما اذا خلف الميت ذكراً فأكثر ، وكان له والدان ، فلكل واحد منها السدس ، فهما سواء في هذه الفريضة لا بتفاضلان فيها ، وذلك لعظم مقام الام بحيث تساوي الأب بالنسبة الى ولدهما ، وان كانا بتفاضلان في الزوجية وغيرها . وكما اذا كان للميت أخ وأخت من أم فلكل واحد منها السدس ، فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث على المساواة التامة بين ذكورهم وإناثهم . والآيات الكريمة في سورة النساء ناطقة بذلك كله .

وجملة القول ان المرأة تارة يكون نصيبها نصف نصيب الرجل ، وتارة مثله ، وهي على كل حال بنته او زوجته او أمه ، وعليه وحده المشقة والنفقة ، ولها الراحة والهناء ، وعليه الغرم ، ولها الغنم ، فأني تكون مهزومة او مظلومة ؟ ووارثته للرجل فلسان حاله يقول قول المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني بما أنا بك منه محسود !

دين المرأة

وأما عبادتها ، فهي مطالبة بأدائها كاملة كالرجال ، ومنها الصيام والحج والزكاة ، اللهم إلا الصلوات الخمس في كل يوم وليلة ، فالشارع اسقطها عنها في حال تلبسها بعذرهما الطبيعي الشهري ويمتد أياماً وفي مدة النفاس في الولادات أيضاً وتمتد عشرات الأيام ، ولم يوجب عليها قضاءها بعد انقضاء تلك الأيام دفعاً للحرج عنها ، « وما جعل عليكم في الدين من حرج » « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » وهذا هو معنى نقصان دينها ، فما هو بالشئ الذي تستحق عليه الملام في الاسلام .

أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم التسع

اجمع المؤرخون وعلماء السيرة على ان محمداً النبي العربي (صلوات الله عليه) اكل ناشئ في قومه ، وأعف رجل فيهم ، وقد خطبته خديجة بنت خويلد زوجاً لها في مطلع شبابه وهي في الأربعين فتزوجها فصارت أم المؤمنين ، وماتت عنده عجوزاً وقد بلغ الخسین ، فكانت أولى نساءه وأم أولاده عدا ابراهيم (فانه من مارية القبطية) وكانت ذات حسب ونسب فاخترت الكفو الكريم .

اقامت معه ربع قرن فلم يتزوج عليها احداً ، بل لم يجمع في مكة بين ثنتين ، بل لم يتزوج بكراً غير عائشة (رض) فهل هذا شأن من يريد الحياة الدنيا وزينتها ؟ ثم إن تعدد ازواجه في المدينة أسباباً خاصة وعامة ، وحكماً ومقاصد سامية ، ونحن نلخصها فيما يلي :

إن الجمع بين أمهات المؤمنين لم يكن إلا بعد هجرة النبي إلى المدينة في السنوات العشر الأخيرة من عمره صلى الله عليه وسلم وعددهن تسع ، خمس من قريش ، وهن عائشة بنت ابي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت ابي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أمية ، واما الأربع الباقيات فهن صفية بنت يحيى الخيرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ،

وجويرة بنت الحارث المطلقة . والحكمة في تزوجه بعد هجرته الى المدينة يضع نسوة في بضع سنين هو العناية باصلاح البيوت ، وتهذيب النفوس ، ومصاهرة القبائل ، وكفالة الأرمال ، وتربية الأيتام ، وأن تكون ازواجه قدوة حسنة لجميع النساء في تلقي العلم والحكمة ، والبر والرحمة ، والتقوى والعبادة ، والتربية والتعليم وإليك البيان :

(١) جعل الله تعالى من بيوت نساء النبي صلى الله عليه وسلم مدارس داخلية يتعلمن فيها الدين : عقائده وعباداته ومعاملاته وأخلاقه لاسيما ما يختص منه بالنساء فقال « وَقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » فالقرار في البيوت من اجل ان يتعلمن ما يحتاجن اليه ، وما يعظن به النساء والرجال ، ولهذا قال : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » وآيات الله : براهينه وكتابه ، والحكمة سنة نبيه المينة مانزل اليه من ربه ، وانما نهى عن التبرج الجاهلي لأن المفتونات بحجب الزينة لا يأتي منهن معلمات ولا مرييات ، ولأن الانقباس في المشتبهات ، والأوامر في اللذائذ يفسد بأس الدول القوية ، ويفقر الأمم الغنية ، فكيف بالأمة الناشئة الضعيفة ، ونساء النبي انما وُجدن عند النبي لتربية الأمة وتعليمها ، وارشادها واسعادها .

(٢) لما طلبن منه التوسع في الطيبات ، وملابس الزينة والترف في المعيشة ، نزلت في حقن آيتا التخيير ، « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كننن تردن الحيا الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأمرحنن سراحن جميلاً وإن كننن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً »

لما نزلت هاتان الآيتان بدأ بعائشة وكانت أحبين اليه ، كما كان أبوها أعز الرجال عليه ، فقال يا عائشة إني أحب أن اعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري ابويك ، قالت وما هو يا رسول الله ، فلا عليها الآية ، قالت : أفيك يا رسول الله أستشير ابوي ، بلى اختار الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم

خيرهنّ كلهنّ فاخترن ماهو خير لهنّ ، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

(٣) أراد نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يقمن حيث أقامهنّ الله ورسوله صالحاتٍ قانتات مرييات معلمات ، مرشدات ومفتيات ، فاخترن الدار الآخرة ونعيمها الدائم ، ورضوان الله الاكبر ، على حظوظهنّ من هذه الحياة الدنيا ومتعها ومفاتها ، فأناهنّ الله كرامةً لهنّ وجزاءً على ما اخترن ورضين بأن قصر نبيه عليهنّ ، دون ان يتزوج او يطلق او يستبدل بهنّ غيرهنّ فقال : « لا يحلّ لك النساء من بعد ولا ان تبدّل بهن من أزواج » الآية ، والحكمة في تحريم تطليقهنّ هو استدانة سماعهن ما يتلى في بيوت النبي من آيات الله والحكمة ، وذكر ذلك ونشره بين الناس لاسيما نساء الصحابة ، وأية فائدة ترجى لهنّ او لغيرهن من طلاقهنّ ، وهن أمهات المؤمنين تعظيماً وتقريماً على الرجال كالأمهات ، فأنت ترى ان النبي قد قصر على ازواجه الطاهرات ، وحرّم عليه ان يمد عينيه الى غيرهن بالزيادة او التبديل ، بخلاف رجال أمته الذين أتيح لهم التعدد بشروطه ، وكذا التطليق ، وان يستبدلوا بأزواجهم غيرهن ، فكان قصره على دائرة ضيقة من الأزواج ، وكانت الأمة في دائرة أوسع منها اهذا هو الذي يسمونه تمتعاً بالنساء أو الأزواج ؟

نساء كلهن نيبات (عدا السيدة عائشة) ومنهن من لها اولاد ، تزوجهن في سن الكهولة أو الشيخوخة ، وحين الحاجة الى التبليغ والتعليم ، وربما كان الزوج بين كلهن قبل نزول آية التحديد بأربع نسوة ، فهي قد نزلت في السنة الثامنة من الهجرة وكان تزوجه بأخرهن وهي ميمونة بنت الحارث المالكية في أواخر سنة سبع منها ، وحرّم عليه تطليقهن لأنهن قد اخترن ما عند الله على زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، على أنهن قد صرن أمهات المؤمنين فما الفائدة من طلاقهن وهن حرام على الرجال ؟ أوليست الحكمة في بقائهن عند هذا الزوج الكريم ، والرسول العظيم ، متعلات معلمات ومثلاً علياً في تهذيب النفوس وسائر الصالحات ؟

تعدد الزوجات والطلاق

ان تعدد الزوجات والطلاق لم يختص بهما الاسلام ، وانما كانا شائعين عند اليونان والرومان والعرب وغيرهم قبل الاسلام ، وقد اباحت القوانين الأوربية والاميركية تعدد الزوجات والطلاق واصبح ذلك عندهم مستحسناً ، من بعد ان كان مستهجنًا ، ولكن التعدد في عرفهم يقصد به التنقل في اللذائذ والتمتع بأنواع الحياة والشهوات ، فكان ذلك من اكبر الدواعي لتناقص النسل ، لا لازدياده ، والسامة من الحياة الزوجية لا الرغبة فيها .

اما التعدد الصحيح فله ضرورات ، منها ان تكون الزوج عقيمًا لا تلد ، او عندها مانع من مرض ، او دخلت في سن اليأس ، وهذه أسباب شخصية ، واما السبب الاجتماعي العام في جميع الشعوب والأقوام ، فهو زيادة النساء على الرجال لا سيما بعد الحروب العامة التي يهلك فيها الملايين من المحاربين ، ويبقى الملايين من النساء بلا رجال فتعدد الزوجات هنا ضرورة اجتماعية لتجديد النسل وتكثير الأيدي العاملة ، وهو من مصالح النساء التي تبقى محرومة نعمة الحياة الزوجية والأمومة ، ويجب أن نعلم يقينًا ان المناداة بالمساواة بين الرجال والنساء في تعدد الزوجات والأزواج هو ضرب من الاباحة أو الجنون ، لأن تعدد الزوجات يزيد النسل ، وتعدد الأزواج يفسد الحرث والنسل . وقد قال بعض الأوربيين الاجتماعيين في بيان الفرق بين الرجل والمرأة في هذا المقام : لو أن الرجل قد تزوج بمائة امرأة في عام واحد لأمكن ان يكون له مائة ولد ، ولو تزوجت أنثى بمائة رجل في عام واحد لكان لها ولد واحد او لا يكون لها شيء .

آية التعدد

يظن كثير من الناس ان الآية الميعة للتعدد بشرط العدل ، داعية الى الاستكثار من عدد الزوجات ، والاستمتاع بصنوف المشتبهات ، مستدلين على ذلك

بجملة منها ؛ وهي : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » غافلين عن أول الآية وآخرها ؛ وضيق الآيات التي جاءت معها وسبقاتها ؛ والأسباب التي أنزلت في شأنها ؛ لكن الممعن في معناها يعلم انها وردت في حفظ حقوق الضعفاء ، والتحذير من اكل اموال اليتامى والنساء ، وأولها : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً . وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا » وقد نزلت في اسباب عدة وما ثمّ تعارض بينها :

- ١ - في اليتيمة تكون في حجر وليها ، فيعجبها مالها ، فيريد ان يتزوج بها طمعاً في مالها او بدون مهر المثل
 - ٢ - في منع اليتيمة من الزوج لبقى الولي متمتعاً بمالها لا ينازعه فيه الزوج
 - ٣ - في الاستكثار من النساء ، والإغارة على أموال اليتامى من اجل ذلك
 - ٤ - في ظلم النساء الكثيرات ، وعدم العدل بينهن .
- لجاءت الآيات قاضيةً بإبطال تلك المظالم ، التي كانت عليها الجاهلية في أمر اليتامى وأمر النساء ، امرأةً بالزوج بالمرأة الرشيدة ، إذا خيف من ظلم اليتيمة ، مبيحة الزيادة على الواحدة الى الأربع ، إذا دعت الدواعي إلى ذلك بشرط العدل بينهن ، فإذا خاف الرجل الظلم اكتفى بواحدة ؛ والأصل في سعادة البيوت ألا يكون للرجل أكثر من واحدة ينعم بها ؛ ويتعاون معها على تربية نسلها تربيةً صالحةً ؛ تعتزُّ بها الأمة والوطن ؛ ولكن العوارض الطبيعية والاجتماعية هي التي تلجئه إلى التعدد كما تقدم .

الطلاق

الطلاق لا يكون الا عن ضرورة وبصيرة ، وذلك بأن يكون الزوجان قانعين بأن لا سبيل لبقائهما على الحياة الزوجية لموانع جسمية أو نفسية ، خلقية

او خلقية ، تجعل صفو العيش كدراً ، وتعرض النسل للمهانة والشقاء ؛ فالفراق في هذه الحال نعمة لا تقمة ؛ والزوجان سعيان به لاشقيان « وإن يتقرفا بغن الله كلاً من سعته » وآية ذلك ان يكون الزوج في حال الطلاق عاقلاً مختاراً ؛ وان تكون الزوجة راضية مطمئنة ؛ فيمتعها متاعاً حسناً بكسوة ؛ ويفارقها بإحسان . أما إذا لم يكن موجب للفراق ؛ فلا يحل له أن يضارها بالطلاق ، وعليه أن يذكر قوله تعالى « فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » فهذا ضمان وأمان لها من الله طول حياتها عنده ما دامت قائمة بواجبها .

أما طلاق الغضبان والسكران والطلاق من اجل قضية اجنبية لا علاقة للزوجة بها فهو طلاق الظالمين لأنفسهم ولأزواجهم .

والحاصل ان مسألة الطلاق كتعدد الزوجات شرعت للحاجة اليها ؛ ولها شروط وقيود ثبتت نفعها وتمنع ضررها ؛ وليس لدينا وقت لايبراد النصوص عليها ، على أنها معلومة مشهورة . أما الطلاق في اوربا واميركا فالظاهر انه لا يكون الا لأسباب تقع بين الزوجين خاصة ؛ ولكنهم يطلقون لأهوت الأسباب وأيسرها ؛ كقص الشعر ؛ وحلق اللحية ؛ ولباس السهرة ونحو ذلك ؛ ولذلك كثر عديم كثرة هائلة وليس لدي احصاء عنه الآن وهو طلاق باعته السامة والملل ، وحسب التنقل وله عواقب وخيمة ومنها ضياع النسل ، وقد نشرت جريدة الاهرام اول سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٣٥ م اعتقاداً للقاضي لندمي اشهر قضاة الطلاق في لوس انجلوس من ولاية (كاليفورنيا) خلاصته ان الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (امريكا الشمالية) وتجعل محلها الاباحة والفوضى في العلاقة بين النساء والرجال في زمن قريب ، وهي الآن كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الاسباب خلافاً لهداية جميع الأديان ، إذ لا دين ولا حب يربطهما ، بل الشهوات ، والتنقل في وسائل المسرات

رسم خطة عملية لاصلاح البيوت

البيوت مؤلفة من رجال ونساء وبنين وبنات ، والرجل هو المسؤول عن زوجه

وولده ، وكل من يتصل به ، وفي الحديث الصحيح : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » فيجب على الرجل ان يأخذ نفسه وأهله بأدب الدين الذي هو جماع الفضائل والآداب ، فان كان الرجل جاهلاً أو ضعيفاً لا يستطيع ان يعلم هو بنفسه ، ولا ان يكون قدوةً صالحةً لغيره ، فعليه ان يستعين على ذلك برجال الأمة وهم علماؤها العاملون الأطهار ، وعلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ان يقوموا بواجب التهذيب والتعليم ، اما اذا كان الرجل آثماً وحاول أن يدخل الفسق في بيته ، ويلوث طهارته وطهارة زوجته وولده ، فما على المحصنات في البيوت والأولاد البررة الا ان يأخذوا حذرهم ، ويتعاونوا جميعاً على نصحه ومنعه ، عملاً بالآية الكريمة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

وهذا الاصلاح الداخلي مطلوب من النساء لأنهن ربات البيوت ، ومربيات النفوس ، بل هن اميرات الداخل ، ومعامل المنازل ، ومازلن اقرب الى الفطرة ، وأعف من الرجال ، وابعد عن كل مسكر ومبسر ، وسائر انواع المفاسد ، والمرأة الحق بأمر الرجل بالمعروف ونهيهِ عن المنكر ، وتطهير بيتها من جرائم الفساد التي يحاول الرجل الأثيم ان يلقح بها عياله واطفاله ، فتفتك بهم عاجلاً أو آجلاً كما فتكت به من قبل ، فعلى النساء ان يحذرن كل الحذر ، وان يعلمن حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يذكرن الآية الكريمة « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض بأمرات بالمعروف وينهون عن المنكر » فقد أعطت هذه الآية الكريمة هذا الحق للرجال والنساء على السواء ، ويدخل في هذا انكارهم حتى على الخلفاء والملوك والأمراء ، وقد كانت النساء يعلمن هذا في صدر الاسلام ويعملن به كالرجال .

وبعد فان لنا عتباً على المرأة الحديثة التي اخذت تعقد المؤتمرات في غير وطنها ، وتطلب حقوقها من غير دينها وأمتها ، وهي تدري او لاتدري أن لها في الاسلام من الحقوق ما لم تعطه امرأة قديمة ولا حديثة ، في شريعة من الشرائع الدينية او المدنية ،

فهي تطالب بحقوق لم تسلبها ، وتشكو أمة لم تظلمها ، وشرية لا تزال تعيش في ظلالها ، وتستنير بنورها ، فيا ليت النساء العربيات المسلمات يعقدن المؤتمرات النسائية في بلادنا ، ويجددن بها مكانة المرأة العربية أيام عصورها الذهبية ؛ فتعود عاملة عاملة ؛ آمرة ناهية ، كما فعلت تلك التي عارضت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في مسألة المهور ، وهو واقف بخطب على منبر الرسول ، فاعترف بخطئه ، ورجع الى قولها عن قوله ، وأرى ان هذا اقرب طريق للإصلاح لأنه متى صلحت الأفراد صلحت الجماعات ، ومتى صلحت الأمرة صلحت الأمة ، والسلام .



محاضرة للاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي على الرجال — مساء الخميس الواقع في ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٢ أيار سنة ١٩٤١ .
وعلى السيدات : مساء الخميس الواقع في ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ الموافق ٢٩ أيار سنة ١٩٤١

الطرمّاح بن حكيم الطائي

(١)

حياته

هو الطرمّاح بن حكيم بن الحكم بن نفّر بن قيس بن جحدر الطائي . ويكنى ابا نفّر و ابا ضيبة . ينتهي نسبه الى طي . وبنو طي من العرب القحطانية كانت منازلهم باليمن فخرجوا منها بمجادنة سيل العرم فنزلوا بنجد والحجاز على القرب من بني اسد ، ثم غلبوا بني اسد على جلي آجأ وسلمى من بلاد نجد فنزلوهما فعرفا بجلي طي ، ثم افترقوا في اول الاسلام زمن الفوح في الاقطار . ولهم بطون كثيرة في الشام والعراق ^(١)

كان نفّر بن قيس أحد أجداد الطرمّاح شاعراً ذكر له ابو تمام الطائي في الحماسة هذين البيتين :

الا قالت مهبشة مالفقرم آراه غيرت منه الدهور
وانت كذلك قد غيرت بعدي وكنت كأنك الشعرى العبور
وكان قيس بن جحدر والد نفّر ابن خالة حاتم الطائي أمره بعض ملوك بني جفنة بدمشق فدخل عليه حاتم فاستوهبه اياه وقال : ^(٢)

فككت عدياً كلها من اسارها فأفضل وشفعني بقيس بن جحدر
ابوه ابي والأم من أمهاتنا فأنم فدتك اليوم نفسي ومعشري
وقيس بن جحدر هذا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم وورد اسمه في كتب طبقات الصحابة ^(٣)

والطرمّاح من فحول الشعراء الاسلاميين ولد ومات في العصر الاموي ، ولم

(١) صبح الاعشى للقلقشندي ج ١ ص ٣٢٠ وبلغ الارب له ص ٢٦٦

(٢) الشعراء والشعر لابن قتيبة ص ١٢٠ (٣) الاصابة في تمييز الصحابة ج ٥ ص ٢٤٨

بنص احد ممن ترجم له من المتقدمين على تاريخ ولادته اووفاته ولكن بعض اخباره
وأشعاره تعين على معرفة ذلك على سبيل التقريب .

ولد الطرماح في الشام ونشأ بها كما نص على ذلك كل من ترجم له دون ان
يعينوا المدينة او القرية التي ولد بها . ولا يبعد ان يكون مولده حوالي منتصف
القرن الأول لما سيأتي . ونحن لا نعلم من احواله وهو في الشام شيئاً بل جميع ما روي
من أخباره كان بعد نزوحه عنها . ولكنه ظل يفخر بشاميته كما يفخر بقحطانيته قال :

ونجارك من أسد العراق كزائب لقحطان اهل الشام يوم استهلته
بهم ينصر الله الخليفة كلما رأوا نعل صنديد عن الحق زلت
وقال :

فبعزنا نصر النبي محمد وبنا ثبت في دمشق المنبر
وقال :

يماني تبوع للساعي يداه وكل ذي حسب يماني
وانتقل من الشام الى الكوفة مع من وردها من جيوش اهل الشام ، ولا
يبعد ان يكون ذلك بعد سنة سبعين اذ قمع عبد الملك بن مروان بجيوش اهل الشام
نواثر العراق . وقد نكون غير مخطئين اذا قدرنا ان الطرماح وقتئذ كان في العقد
الثالث من عمره كما أكثر الجنود عادة . وتزل بالكوفة في نيم اللات بن ثعلبة وأخذ
عن شيخ منهم مذهب الخوارج كما سيأتي . ولكن لم يرو عنه انه حارب مع الخوارج .
وبالكوفة صحب الكميّ ابن زيد الاسدي الشاعر وتوثقت بينهما عرى الصداقة
على اختلاف احوالهما . قال صاحب الأغاني : « كان الكميّ بن زيد صديقاً للطرماح
لايكادان يفترقان في حال من احوالهما فليل الكميّ لاشيء اعجب من صفاء ما بينك
وبين الطرماح على تباعد ما يجتمعكما من النسب والمذهب والبلاد هو شامي قحطاني
(خارجي) وانت كوفي تزارى شيعي فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟
فقال اتفقنا على بغض العامة » (١)

(١) انظر أيضاً البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٥٢

وذهب من الكوفة الى بلاد فارس وذكر عدة مواضع منها في شعره مثل :
وكرمان وبغ الریح والقافزان وقزوين قال :

ألا أيها الليل الطويل الا اصبح بيم وما الاصبح فيك بأروح
لئن مرّ في كرمات ليلى فربما حلا بين تليّ بابل فالضريح
وقال :

طربت وشاقتك البرق الباني بفتح الریح فبح القافزان
الم تر ان عرفان الثريا بهيج لي بقزوين احتزاني
وذكر الجاحظ في البيان والتبيين ^(١) ان الطرماح أقام بالري يشتمل بالتعليم .
وعاد الطرماح الى الكوفة واقام بها الى ان توفي . قال ابن شبرمة : « كان
الطرماح لنا جليلاً فقدناه اياماً كثيرة فقمنا بأجمعنا لننظر ما فعل وما دهاه فلما كنا
قرباً من منزله اذا نحن بنعش عليه مطرف اخضر فقلنا ان هذا النعش فقيل هذا
نعش الطرماح فقلنا والله ما استجاب الله تعالى له حيث يقول :

واني لمقنّاد جوادي وقاذف به وبنفسي العام احدى المقاذف
لا كسب مالاّ او أوّل الى غنى من الله بكفني عدات الخلائف
فيارب ان حانت وفاتي فلا تكن على شرجع ^(٢) بعلى بخضر المطارف
ولكن قبري بطن نسر مقلبه بجو السماء في نسور عوا كف
وامسي شهيداً ثاوياً في عصابة يصابون في فح من الأرض خائف
فوارس من شيان ألف بينهم تقى الله نزالوت عند التزاحف
اذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا الى موعود ما في المصاحف

ويقول ابو هلال العسكري في جزء من كتاب التصحيح ^(٣) ان الطرماح بقي
بعد الفرزدق . والفرزدق توفي سنة اثني عشرة ومئة . فلا يبعد ان يكون مات
بعده بقليل لأنه ليس في أخباره أو شعره ما يدل على انه عاش طويلاً بعد
ذلك التاريخ .

ولم يرو عن الطرماح انه اتصل بأحد من خلفاء بني أمية او مدحهم ولكنه مدح من أمراء العراق يزيد بن المهلب وهو قحطاني واثار الى مقتله يوم العقر سنة اثنتين ومئة بقوله :

كتائب من قحطان بالعقر اوقعت وقائع فيها أعظمت وأجلت
ومدح ابنه مخلد بن يزيد الذي توفي فتى في حياة ابيه حوالى سنة مئة^(١) كما
مدح خالد بن عبد الله القسري وهو قحطاني ايضاً (ولي العراق سنة خمس ومئة
وقتل سنة ست وعشرين ومئة) وكان خالد يحله ويؤثره . ورد في الاغانى : ان
الطرماح دخل على خالد فانشده قوله :

وشيبني ما لا ازال مناهضاً بغير غنى اسمو به وابوع
وان رجال المال اضحوا ومالهم لم عند ابواب الملوك شفيح
احترمي ريب المنون ولم انل من المال ما اعصي به واطيع
فأمر له بعشرين الف درهم وقال امض الآت فاعص وأطع .

ومدح الطرماح خالداً فأقبل على العريان بن الهيثم وقال له : اني قد مدحت
الأمير فأحب ان تدخلني عليه ، فدخل اليه العريان فقال له : ان الطرماح قدمدحك
وقال فيك قولاً حسناً . فقال مالي في الشعر من حاجة . فقال العريان للطرماح ثراء له .
فخرج معه فلما جاوز دار زياد اذا بشيء قد ارتفع فقال يا عريان انظر ما هذا فنظر
ثم رجع فقال : أصلح الله تعالى الأمير هذا شيء بمث به اليك عبد الله بن ابي موسى
من سجستان فاذا حمر وبغال ورجال وصبيان ونساء ، فقال يا عريان اين طرماحك
هذا ؟ قال : ههنا قال : اعطه كل ما قدم به . فرجع الى الكوفة بما شاء ولم ينشده .
ووقعت مهاجرة بين الطرماح وبين الفرزدق كانت الطرماح موقفاً فيها كثيراً .
أما أهل بيت الطرماح فنعلم ان اسم زوجه سلى فقد ذكرها في شعره كما ذكر
ايضاً اسم ابنه صمصامة قال :

(١) وفيات الأعيان لابن خلدان ج ٢ ص ٣٥٤

أيا سلمَ ان ارجع اليك فربما رجعت وأمرني للعدى غير مفرح
أحاذر يا صمصام ان مت ان يلي تراثي وإياك امرؤ غير مصلح
وورد في الأغاني ان له ابناً اسمه صبيرة ولصبيرة هذا ولد اسمه يحيى روى
عنه ابو عبيدة . ومن احفاد الطرماح امان بن الصمصامة بن الطرماح كان شاعراً
نحويّاً عالمّاً باللغة والشعر حافظاً للقريض وكان كاتباً عند المهالبة في افريقية
فلما تولى افريقية ابراهيم بن الأغلب سنة أربع وثمانين ومئة وكان ينتسب الى بني تميم
اطرحه لأن جده الطرماح هجا بني تميم^(١)

ثقافته وصفته وأخلاقه

كان الطرماح واسع الرواية تعلم النحو وطلب غريب اللغة وعلم الأدب وقد
يكون اول من تثقف من الشعراء الاسلاميين على سبيل الطلب والدرس . وهو
معدود في الخطباء الفصحاء كما هو معدود من فحول الشعراء . قال الجاحظ « ومن
الخطباء الشعراء الطرماح بن حكيم الطائي وكنيته ابو نقر^(٢) » وقال ايضاً « وكان
الكثير والبعيث والطرماح شعراء خطباء^(٣) » ولكن خطب الطرماح لا تزال سرّاً
مكتوماً في صدر الزمان .

أما حسن تعليمه فقد قال الجاحظ ايضاً : « قال عبد الأعلى رأيت الطرماح
مؤدباً بالري فلم أر احداً أخذ لعقول الرجال ولا اجذب لأسماعهم الى حديثه منه ،
ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده كأنهم قد جالسوا العلماء^(٤) »

وفي الأغاني^(٥) ان الكميّ أنشد قول الطرماح :

إذا قبضت نفس الطرماح خلقت عرى الجدد واسترخت عنان القصائد

فقال اي والله وعتات الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة .

(١) مقدمة ديوان الطرماح عن معجم الادماء لياقوت ج ٢ ص ٣٦١ وبنية الوعاة للسيوطي ص ٢٠٠

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٦ (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٧٢ (٤) البيان والتبيين ج

٢ ص ٢٥٧ (٥) ج ١٠ ص ١٢٩

وما وصل إلينا من شعر الطرماح مع بعض أخباره يدل على استقامة وجد وحزم وتقوى شأنت أكثر الخوارج ، فلم يكن يميل إلى العبث واللغو بل يغلب عليه الجد والتصادق كما أنه كان بعيداً عن مداراة الأمراء ومداجبتهم يرى نفسه أكبر من أن يقف بحضرة أمير وينشده الشعر . قال صاحب الأغاني : « وفد الطرماح بن حكيم والكهيت بن زيد على مخلد بن يزيد المهلبلي فجلس لهما ودعاهما فنقدم الطرماح لينشد فقال له أنشدنا قائماً فقال كلا والله ما قدر الشعر أن أقوم فيخط مني مقامي وأحط منه بضراعتي وهو عمود الفخر ويبت الذكر لما أثر العرب فقبل له فتشع . ودعي الكهيت فأنشد قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم فلما خرج الكهيت شاطرها الطرماح وقال له : أنت أبا ضيبة أبعد همةً وأنا ألطف حيلةً »

والطرماح مع علو همته وأنفته نخور تياه يفخر بنفسه ونفسه ويتعصب للقطانية على العدنانية ويعتز بقبيلته واسلاميته وشأميته ، وأشعاره في ذلك غير قليلة . قال صاحب الأغاني : « مرّ الطرماح في مسجد البصرة وهو يخطر في مشيته فقال رجل من هذا الخطار فسمعه فقال أنا الذي أقول :

لقد زادني حباً لنفسي انني	بغض الى كل امري غير طائل
واني شقي باللثام ولا ترى	شقياً بهم الا كريم الشمالك
اذا ما رأي قطع الطرف بينه	وييني فعل العارف المتجاهل

مذهبه

« لما ذهب الطرماح من الشام الى الكوفة نزل في نيم اللات بن ثعلبة وكان فيهم شيخ من الشراة له ممت وهيئة ، وكان الطرماح يحالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ودعاه الشيخ الى مذهبه فقبله واعتقده اشد اعتقاد وأصححه حتى مات عليه . » هكذا يقول صاحب الأغاني . ويقول ابن جرير الطبري ^(١) ان القعقاع بن قيس عم الطرماح كان يرى رأي الخوارج . فلا يبعد ان يكون الطرماح كتم

مذهبه وهو في الشام خوفاً من الخلفاء فلما ذهب الى الكوفة أعلنه . ويقول صاحب الأغاني انه كان يعتقد مذهب الازارقة من الشراة ويجعله الجاحظ^(١) من الصفرية وكلتا الفرقتين من الخوارج وأصولهما واحدة واختلافهما في الفروع غير ذي بال^(٢) والازارقة أكثر تشدداً والصفرية ألين جانباً . ولعل ما قاله الجاحظ هو الصحيح لأنه لم يرو عن الطرماع انه قاتل مع الخوارج بل مدح بعض امراء العراق من قبل بني أمية وذكر خلافهم بخير . وشعره يدل دلالة واضحة على انه يعتقد مذهب الخوارج اصح اعتقاد من ذلك قوله :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ان لم أفر فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد الا المنيب بقلب المخلص الشاري
وقوله :

لله در الشراة انهم اذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجئون الخنن آونةً وان علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبیت القلوب واجفةً تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف ارجى الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسي فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا
ولكنه لم يكن خشناً ولا متمماً وصادقته للكيمت بن زبد الشيعي دليل على دمايته ولين جانبه .

شعره

الطرماع من فحول الشعراء الاسلاميين تغلب عليه الجزالة حتى تنتهي به في كثير من شعره الى الغريب والعويص ، ويظهر على شعره أثر الاسلام والايمان بما أتى به والرغبة فيما دعا اليه والخوف مما نهى عنه فهو من هذه الجهة يشبه الفرزدق ويزيد عليه بالجد والتصادف وخلو شعره من العبث والمجون والغزل الفاحش .
نقرأ شعر الطرماع فترى نفس شاعر فارس جم المروءة حي الأنف كبير النفس

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٤ (٢) انظر كتاب الفرق بين الفرق ص ٦٢ و ص ٧٠

حسن الايمان لا يكاد يصرف شعره في سبيل التكسب والزلفى بل يرسله معبراً عما
يختلج في نفسه من بواعث الشعر فيصف ويتغزل ويفتخر ويهجو ويرسل المثل وينطق
بالحكمة والموعظة . وتكاد تكون جميع قصائده الطويلة من هذا النوع لم يمدح بها
أحداً ولم يرث بها أحداً قالها لوجه الشعر فشفي نفسه في زمن كثر فيه المداحون المستجدون
أما وصفه فهو أشبه بوصف شعراء الجاهلية يصور البادية وحياتها وطبيعتها
ومافي أرضها وسماؤها على انه حضري نشأ في الشام ودخل بلاد فارس وأقام بها
ولكن إلهام البادية في وصفه أظهر وعزيف جنها أوضح يعبق فيه الشيخ والقيصوم
ويلمع السراب وترغو الابل وهو في جملته وصف دقيق فيه حياة متحركة يتناول
الدقيق والجميل ولكن غرابة اللغة في كثير منه تجعله غريباً عن الأذواق .
وأما غزله ففيه حنين يبعث الحنو وتشوق يثير الوجد ولوعة تئنزى عاطفة شريفة
يرسله أنفاساً حرة من غربته في بلاد فارس الى سلى التي ملكت قلبه وشغلته
عن سواها ، وسلى هذه هي امرأته وما أعجب قوله فيها :

كأن فؤادي بين أظفار طائر	إذا سحنت ذكراك من غير منيح
وذكراك ما لم تسعف الدار بيننا	تباريح من عبس الحياة المبرح
أيا سلم ان ارجع اليك فربما	رجعت وامري للعدى غير مفرح
أصمصام ان تشفع لأُمك تلقها	لها شافع في الصدر لم يتبرح
هل الحب الا انها لو تعرضت	لندبجك يا صمصام قلت لها اذبحي

«وصمصامة هذا ابنه» ولا شك في ان الغربة ارهفت عاطفة حب الأهل والبنين
والوطن في نفسه وجعلته مشفقاً من حوادث الزمان يخشى ان تغتاله المنية وهو بعيد
عنهم قال :

أحاذر يا صمصام ان مت أن يلي	ترائي واياك امرؤ غير مصلح
إذا صك وسط القوم رأسك صكة	يقول له الناهي ملكت فأسجح
وناصرك الأدنى عليه ظعينة	تميد اذا استعبرت ميد المرنج

. منجعة لا دفع للضم عندها سوى سفحان الدمع من كل مسفع
 اذا جئتها تبكي بكتك وتذكرت مع الحزن صولات امري غير زمع
 وأما فخره فمن ابواب شعره الجيدة ينم على اعتداده بنفسه وزهوه بها وافتخاره
 بفضائله الخاصة وكرم قبيلته ومآثرها واحتقاره للطبقة الدنيا من الناس وعدم احتفاله
 بالعامه وما أعرف فخراً احلى عنجبية من قوله :
 « لقد زادني حباً لنفسي أني » الأبيات
 يتبع

خليل مردم بك



كلمة (فند شمع)

(من أين جاءت ؟ وكيف استعملت ؟ وشي من تاريخها)

أضع اليوم رسالة بعنوان (مكتبة آل المغربي بطرابلس الشام . وصفها وتاريخ جمعها وذكريات عنها) وقد كلفني الكتابة في هذا الموضوع رصيني الاستاذ الفيكت فيليب دي طرازي . لأنه مزعم تأليف كتاب بامم (خزائن الكتب العربية) وهو الكتاب الذي نوّه به الاستاذ رئيس المجمع في الجزء الأول من السنة الماضية .

وبينا انا استعرض كتب خزانتنا اذا كتاب من مخطوطاتها عنوانه (كتاب شرح ديوان ابي العلاء المعري لابن الدرة) (كذا بالهاء ذات النقطتين في آخرها) وتحت هذا العنوان عنوان آخر هذا نصه (سقط العقيان والحلى لعروس ديوان ابي العلاء . بل ضوء الفند . من سقط الزند . للمرحوم الشيخ محمد الدرا) (كذا بالالف في الآخر بدل الهاء) وهو أحسن شروحه اه وقد قال المؤلف في مقدمة شرحه مانصه (وقد كنت حين الشروع في هذا الشرح سميت (سقط العقيان والحلى لعروس ديوان أبي العلاء ثم اني بعد الفراغ منه والاطمأن . رأيت في عالم الخيال والمنام . أني استقدح زنداً . واستصبح منه فنداً . فعبرت ذلك ان سميت : ضوء الفند . من سقط الزند) ثم قال المؤلف في خاتمة الكتاب إنه فرغ من تأليفه في جدة سنة ١٠٦٤ هـ ويض المؤلف منه اربعة كرايس الى اب قدم بلده دمشق . وتوفي فيها سنة ١٠٦٥ هـ وقام بعده ابن اخيه عبد الحق بن علي الدرا فأكمل بياض الشرح في سنة ١٠٩٥ هـ ولعل مخطوطة خزانتنا هي نفسها التي كتبها عبد الحق . وقد بحثت عن نسخة أخرى سواها لدى آل الدرا وفي المكتبة الظاهرية وفي فهرست دار الكتب المصرية فلم اظفر بشي . والسقط بالقاء المفتوحة وعاء الطيوب والجواهر ونحوها . اما تسمية الكتاب بالامم الثاني اعني (ضوء الفند) فهو موضع تساؤل : من اين جاءت

كلمة (فند) الى لغتنا العربية واذا لم تكن عربية بل دخيلة معربة فكيف جاز للمؤلف ان يستعملها منذ ٣٠٠ سنة ؟

عهدي بكلمة (فند) وتضاف الى الشمع فيقال (فند شمع) — أنها عامية محضة وكنت من يوم نشأت اسمع الناس في طرابلس يقولون (فند شمع) ويريدون بالشمع الشمع الذي يستضاء به بل اذا انعمنا النظر في كلامهم نراهم يريدون به في اكثر الأوقات عدة شمعات تباع في غلافها المتخذ من الورق الشخين الازرق . وبقال احياناً (دز دينة شمع) مكان (فند شمع) وقد راجعت عن كلمة (فند) كل ما عندي من كتب اللغة فلم اعثر عليها كما راجعت معجم شمس الدين سامي ومعجم لاروس والمعجم الانكليزي فلم أرها بين كلمات هذه اللغات وسألت اخواننا اهل دمشق عما اذا كانوا يستعملونها في لهجتهم اليومية فقالوا انهم لا يعرفونها . ولا سمعوا بها . فن أبن وصلت الى مؤلف (ضوء الفند) وهو دمشقي النشأة والوفاة حتى سمي كتابه بها منذ ثلاثة قرون . ثم خطر لي ان اراجع معجم اليسوعيين (الفرائد الدرية) فوجدته يقول (فند الشمع وجمعه فنود Bougie. Cierge) وضبطاء (فند) بالكسر وعهدي بالطرابلسيين انهم ينطقونها بالفتح . وجمعها في الفرائد على فنود والاقبس ان تجمع على افناد اذا صح انها مكسورة الفاء . وقد وضعت أمامها العلامة التي تفيد ان الكلمة عربية عامية وان اكثر استعمالها بين عامة لبنان . لكنه (اي صاحب الفرائد) لم يشر الى المعدن التي منه نبت . وعنه اغتربت . فن أبن جاءتنا اذن ؟

وأخيراً رجعت الى الحاج علي أكبر الشيرازي وهو شيخ معمر من النزلاء الايرانيين بدمشق وقد اعتدت ان استفتيه في الكلمات الفارسية او الايرانية الحديثة فلعل (فندا) من هذه الكلمات وقلت له انها تدل على معنى الشمع فقال انه لا يعرفها وانما يعرف كلمة (فندك) ويتذكر أنه وهو صغير في شيراز كان يرى اجدله يتخذون اناء صغيراً من زجاج يملؤونه ماء ويصبون على الماء مذوب الشمع وعلى الشمع شمعة او فتيلة صغيرة يستضيئون بها في الليل مكان البترول وانهم يسمونها (فندك)

هذا ما قاله فلعل كلمة (فندك) جاءتنا مع السلع التي كانت ترد إلينا من إيران في القرن الماضي وما قبله ثم حُرِفَت إلى كلمة (فند) واطلقنا على الشمع . وانا الاستصباح الذي ذكره الحاج علي أكبر يسمى في دمشق (ادارة) وفي طرابلس الشام (نواصة) و (إرّاية) وإذا لم يصح أن (فند) إيرانية وإن أصلها فندك كان لنا أن نتبناها نحن معشر العرب وندعي عربيتها حتى نقوم لغة أخرى فتستلحقها . ونقيم الدليل على نسبتها إليها :

(الفند) بكسر الفاء لها في اللغة العربية عدة معان لا يمكن أن يكون معنى (الفند) جاء منها . اللهم إلا من معنيين :

(الأول) أن الفند يكون بمعنى (الطائفة من الليل) كما في نهاية ابن الأثير . فهل يسمح لنا أن نقول أن استعمال (فند الشمع) جاء من هذا المعنى على تأويل أن الظلمة تنجاب وتنكشف بنور هذا الشمع . ولا إنكرا أن في هذا التوجيه تكافؤاً : لأن الظاهر أن يقال : شمع الفند أي شمع الظلام لا فند الشمع أي ظلام الشمع (الثاني) أن (الفند) في اللغة يكون أيضاً بمعنى الغصن من أغصان الشجر . وفند الشمع أو شمعاته هي شبيهة بأغصان تفرس ليلاً في المجالس . فيُجْنى منها بدل الثمار نوراً يطرد الحنادس . فهل يوافقني قارئ الكريم على أن معنى (الفند) جاء من هذا المعنى المجازي ثم تنوسي بالمرّة أن الفند بمعنى الغصن وصار يفهم منه معنى الشمع حتى صار الشمع معنى حقيقياً له . ومثله كثير في كلمات اللغة العربية : تكون الكلمة مجازاً ثم تصبح بسبب تواتر الاستعمال حقيقة .

نرجع إلى عبارة المؤلف (الدرّاء) في مقدمة كتابه وهو قوله (استقدح زندا . واستصبح منه فندا) فمعناه : استوري من الزند نوراً كنور الشمع . وقوله (ميمته ضوء الفند من سقط الزند) السقط الشرر المتناثر من الزند . فيكون المعنى : ميمته ضوء الشمع المستخرج من شرر الزند . مريداً بذلك أن شعر أبي العلاء كالشرر

فهو (اي المؤلف) استخرج منه نوراً . ازداد به الشرر ظهوراً . لكن المؤلف لو قال
(على سقط الزند) مكاتب (من سقط الزند) لكان احسن
وقال ناسخ المخطوطة عبد الحق الدرا في آخرها مانصه (ولم تزل هذه اللؤلؤة
(بمعنى كتاب خاله) في صدفه المسودة . تمضي عليها مدة بعد مدة . وهي كالغناء .
يسمع اسمها . ولا يرى جسمها . حتى كادت تخفى . ونور هذا الفند يطفى . إلى
أن يسر الله تبييضها الخ

فانظر كيف ان كلمة (فند) قد مرنت عليها السنة الدماشقة في ذلك العهد .
الى هذا الحد . ويزيدك دلالة على ذلك ان المؤلف لم يفسر في كتابه لمن جاء
بعده معنى كلمة (الفند) مع انه فسر نحو الف كلمة من عويص الكلمات . ونسي هذه
الكلمة الواحدة التي جعلها اسماً لكتابه . ولا سيما انه سخط له الطف المناسبات لتفسير
معنى (فند الشمع) . وذلك انه فسر لنا في تأليفه قول (ابي العلاء) يخاطب الدهر:
(تستأثر العقبان في جوها وتزل الأعصم من فنده)

ففسر كلمة (الفند) بالقطعة من الجبل لكنه لم يفسر لنا كلمة الفند بمعنى الشمع .
ومن أية لغة جاءت ؟ ومن أي جانب على لغتنا دمرت ؟ ألا يكون هذا من
مواضع العجب ؟

ولقائل ان يقول ان المؤلف رأى كلمة (الفند) معروفة المعنى مألوقة الاستعمال
بين اهل زمنه ومثلها لا يحتاج الى تفسير . وهذا كما اذا قام احدنا والف رسالة
في تكذيب ما تناقلته العرب من أخبار الغيلان وسمى رسالته (إيقاد البترول على
أخبار الغول) أثراه يفسر لنا معنى كلمة (البترول) الأعجمية ؟ . وهكذا اشتهرت
كلمة (الفند) بمعنى الشمع بالنسبة الى الدماشقة في زمن المؤلف فأصبح تفسيرها
بما لا حاجة اليه

على ان كلمة (فند) ان كانت عادت فانت في دمشق فانها لم تزل حية - في ما
أظن - في طرابلس الشام وما يليها من مدن الساحل .

وتتبع تاريخ كلمات اللغة وتطورها بحث لغوي جديد يحتفل له علماء اصول اللغات من علماء اوربا . فينبغي للمشتغلين منا في علم اللغة ان يمنحوا هذا العلم الطريف جانباً من عنايتهم واهتمامهم

وبهذه المناسبة نقول : انه كان قديماً لصنع الشمع والمتاجرة به سوق رائجة في دمشق : أيام كان ركب الحج والحجاج يقدون ويروحون بين الشام والحجاز وكان الحجاج واهلهم ومودعوهم يهدون وينذرون الشموع للمسجد النبوي والأضرحة الشريفة . وكان في دمشق معامل وعمال وعائلات ترتزق من صنع فنود الشمع . وما زال الى اليوم يسمى بعض هذه العائلات بالشماع . ففي هذا المحيط تولدت كلمة (الفند) بمعنى الشمع وكذلك تولدت مثل هذا التولد بين النصارى بالنسبة الى الشمع الذي يهدى من مزارات القدس وإليها كذا أخبرني لفيف من قساوسة الروم الأرثوذكس .

* * *

والشيخ محمد مؤلف ضوء الفند ترجمه المحبي في (نفحة الريحانة) وفي (خلاصة الأثر) (جزء ٤ ص ٢٤٩) وتكرر اسمه فيه بلفظ (الدرا) بالألف لا (الدرّة) بالهاء . وقال عنه : انه حضر دروس الشيخ عبد الرحمن العادي والنجم الغزي . ورحل الى القاهرة . وجاور بمكة . وعمل فيها شرحاً على (سقط الزند) ثم ادركه المرض ولم يكمل الشرح !! وجعل كتابه يرسم خزانة الشريف (زيد بن محسن) وقال : انه ولد سنة ١٠٢٨ هـ وتوفي بدمشق سنة ١٠٦٥ هـ ودفن بجبانة باب الصغير اه غير ان المحبي اخطأ في قوله : ان المؤلف لم يكمل شرحه على سقط الزند بل تقول انه اكمله تأليفاً . لكنه لم يكمله تبليفاً . فأكمل تبليغه ابن اخته (عبد الحق) كما نقلناه عن مخطوطتنا في صدر مقالنا هذا .

اما ان اسم المؤلف (الدرّة) بالهاء او (الدرا) بالألف فأذكر خلاصة ما سمعته من الاخوان الدمشقيين في التفرقة بينهما قالوا : في دمشق امرتان بهذا الاسم احدهما مقيمة في دومة احدى مدن الغوطة . والاسرة الأخرى وافدة من حمص واوطنت دمشق منذ القديم . وزاد آخر فقال والأمره الدومانية هي التي تكتب (الدرّة) بالهاء

على اسم الطائر المعروف الذي يسمنا صوتاً يحكي كلام الناس . اما الأسمرة الحمصية فيكتب اسمها (الدرآ) بفتح الدال وبالألف المقصورة وزاد ثالث ان اصل (الدرآ) (الدرآء) بهمزة في آخرها على وزن غرآء فقصرت قال : وإنما لقبت هذه العائلة بالدرآء لأن رجالها اشتهروا بخاصة جزيلة النفع إلهية الصنع : ذلك ان الموضع من النساء اذا خانته درتها . وخافت على طفلها . قصدت كبير بيت الدرآ فيضع يده المباركة على ثديها . ويتلو دعاء عجيبياً توارثوه بينهم فيستدر لبنها . وتصبح (درآء) غزيرة اللبن . بعد ان كانت (جدآء) لا لبن في ثديها .

اقول : لكن اهل اللسان لا يعرفون كلمة (الدرآء) بمعنى المرأة ذات الدر وانهم ربما يقولون في صفتها (درور) لا (درآء) فقولهم (الدرآ) اذن من مخترعاتهم وعلى هذا يكون معنى (بيت الدرآ) العائلة المنسوبة الى المرأة (الدرآء) التي ردتوا لطفها . وأرجعوا إليها درتها . وهناك احتمال آخر وهو أن تكون كلمة (الدرآ) محرفة عن (الدرّة) بمعنى لبن الموضع الذي يسيل من ثديها . ووُلف (ضوء الفند) من هذا البيت على ما يقال .

المغربي



المكثرون من التأليف والمجودون فيه^(١)

من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق كتابان عظيمان : كتاب الكواكب الدراري في تبويب مسند الامام أحمد على ابواب البخاري لجامعه ابي الحسن علي بن عروة الخنيلي من أهل القرن التاسع ، وكتاب تاريخ دمشق الكبير لواضعه الحافظ ابي القاسم ابن عساكر من أهل القرن السادس .

هذان السفران الجليلان آيتان ناضجتان على طول نفس القدماء في التأليف ، وجد من الأول مجلدات كثيرة ضخمة الموجود منها اربعة وأربعون مجلداً متفرقة ، وما وجد منها المجلد الثاني والعشرون بعد المئة فلا يظن ان الكتاب بلغ أقل من مئة وخمسين مجلداً في التفسير والحديث والاصول والفقه وتراجم الخبائلة ومباحث في الفلسفة والكلام والتاريخ والأدب ، فهو معلمة اسلامية حقيقية ضمت بين جوانحها اشهر كتابات علماء الخبائلة وكبار مجتهدي الأمة مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن رجب وغيرهم من الاعلام .

وأما تاريخ دمشق فمعه الآن نسختان نسخة في عشرين مجلداً ونسخة وقعت في عشرة مجلدات ضخمة وهي تامة وكان كتب في ثمانين مجلداً . ولقد جرى ذكره في مجلس حافظ مصر زكي الدين المنذري وطال الحديث في امره واستعظامه فقال الحافظ : ما أظن هذا الرجل الاعزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت ، والا فالعمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبيه . قال ابن خلكان : ولقد قال الحق ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ومتى يتسع للإنسان الوقت حتى يضع مثله وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره وما صح له هذا الا بعد مسودات ما يكاد ينضب حصرها وله غيره تواليف حسنة . ويعتبر ابن عساكر على كثرة ما كتب من المجودين في تأليفه افتح اي كتاب من كتب التراجم والاسيا تراجم أهل القرون الستة الأولى للإسلام ،

(١) من مسامرة للاستاذ محمد كرد علي انماها في مذيع الشرق في بيروت راجع المجلد الخامس والمجلد

الثامن من مجلة المنتبى

تسقط على مبلغ عناية رجالنا بالتأليف وتوفرهم على النفع ، وقد يظن ان معظم ما خلفوه من كتبهم هو ديني محض ولا أثر لهم في العلوم الدنيوية ، ولكن بعضهم جمعوا الدين والدنيا وكانوا يعتقدون بأن العلوم بأمرها نافعة .

هذا ابو محمد بن حزم الظاهري ، وأهل الظاهر نقاة القياس والتعليل ، وهو معدود في الطبقة الأولى بين علماء الدين ومع هذا تجدله تأليف متمعة فيما نعتبه من علوم الدنيا فقد ذكر غير واحد من علماء الاندلس ان تصانيفه في الفقه والحديث والاصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والفلسف وكتب الادب والرد على المخالفين نحو من اربعائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين الف ورقة . وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان قبله الا لابي جعفر محمد بن جرير الطبري ، فانه أكثر أهل الاسلام تصنيفاً فقد ذكر ابو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ ابي جعفر الطبري الكبير ان قوماً من تلاميذ ابي جعفر اخلصوا ايام حياته منذ بلغ الحلم الى ان توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ، ومن جملة تأليفه التفسير الكبير والتاريخ الذي هو أصح التواريخ وأنبهها وكلاهما مطبوع متداول وهو الذي قال لتلاميذه : هل لكم أن ألمي عليكم كتاباً في التاريخ قالوا كم يكون حجمه فقال : ثلاثون الف ورقة فاستعظموا ذلك وادادوه على الاختصار حتى أملاه عليهم في ثلاثة آلاف ورقة فجاء كما رأينا اليوم احد عشر مجلداً ضخماً أملاه بهذا القدر وهو يحوّل ويقول : ماتت المهم . لأن تلاميذه لم يوافقوه على جعل تاريخه ثلاثين الف ورقة . ومن أهم تأليف ابن حزم : كتاب « طوق الحمامة » وهو من أجمل ما كتب اديب في العشق والغرام ، وما كان من المستغرب في عصره وعصره عصر زهو العلم في الأندلس ان يتحدث العالم الى الناس بشعوره وعاطفته .

وابن جرير في نظري وابن حزم في إكثارهما من التأليف كانا غاية الكمال

في الإجابة المجمع عليها مثل ابن تيمية من أهل القرن الثامن فقد قال فيه أحد واصفيه ان له من المؤلفات والقواعد والفتاوى والأجوبة والرسائل والتعليق مالا يحصى ولا ينضب ولا أعلم أحداً من المتقدمين ولا من المتأخرين جمع مثل ما جمع ولا صنف نحو ما صنف ولا قريباً من ذلك ، مع ان تصانيفه كان يكتبها من حفظه وكتب كثيراً منها في الحبس وليس عنده ما يحتاج اليه ويراجعه من الكتب . وقال غيره : كان الامام يكتب في اليوم والليلة من التفسير او من الفقه او من الأصول او من الرد على الفلاسفة الأوائل نحواً من أربعة كراريس او أزيد ، وما يبعد أن تصانيفه الى الآن تبلغ خمسمائة مجلد وله في غير مسألة مصنف مفرد في مجلد ، وجمع بعض الناس فتاوية بالديار المصرية مدة مقامه بها سبع سنين في علوم شتى فجاءت نحو ثلاثين مجلداً وقيل ان تأليفه تبلغ ثلاثمائة مجلد . وكل ما كتبه وأملاه مجيد فيه للغاية كان على الأيام موضع إعجاب اوليائه واعدائه .

ومثله ابو الفرج ابن الجوزي الواعظ من علماء القرن السادس صنف في فنون عديدة وكتبه أكثر من أن تعد وكتب بخطه شيئاً كثيراً والناس يغالون في ذلك حتى يقولون انه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره وقسمت الكراريس على المدة فكان ماخص كل يوم تسع كراريس . وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل ويقال انه جمعت براية أفلامه التي كتب بها حديث الرسول فحصل منها شيء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يغسل به بعد موته ففعل ذلك فكفت وفضل منها . وهو من المعدودين في المجودين .

ومن المكثرين من التأليف المجودين للغاية ابن الهيثم الرياضي الطبيعي فقد عدد ابن ابي أصيبعة مصنفاته في زهاء اربع صفحات هذا عدا ما ضاعت دساتيره منه لما فارق البصرة والاهواز وانتقل الى مصر قال : وما أظنها تنقص عن مئة مجلد . ومثله الفارابي احد فلاسفة الإسلام كان مكثراً من التأليف ، وقد اضاع أكثرها لأنه كان يكتب في رقاع كيفما اتفق ويختار الفلاة وبحاري الأنهار

للتأليف فنطير الاوراق التي يكتبها . والفارابي أحد فلاسفة الاسلام ذو نفوت شتى وفكر بدبعة مخترعة .

ومثلهما ابو الريحان البيروني له في الرياضيات والنجوم اليد الطولى ، وكان مكباً على تحصيل العلوم منصباً على التصنيف ، لا يكاد يفارق يده القلم وعينه النظر وقلبه الفكر ، دخل عليه بعض اصحابه وهو يجود بنفسه فقال له في تلك الحال : يا هذا كيف قلت لي يوماً حساب الجدات الفاسدة فقال : أفي هذه الحال قال : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بها أليس خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها قال : فذكرتها له وخرجت ، فسمعت الصريح عليه وانا في الطريق . قال يا قوت : واما تصانيفه في النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فانها تفوت الحصر ورأيت فهرستها في وقف الجامع يرو في ستين ورقة . وقال بعض مترجميه : ان كتبه زادت على حمل بعير . ولم يبق منها سوى أربعة كتب طبعت في اوربا . وكل ما وضع من تأليفه في العلوم مما ترتفع به رؤوس أبناء هذه الأمة على كر الدهور والاعصار .

والبيروني أحد كبار فلاسفة العرب يجي في طبقة ابن سينا وابن رشد وابن زهر والفارابي ومثلهم الكندي فيلسوف العرب وكتبه في علوم مختلفة مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والارثماطيق والموسيقى والنجوم وغير ذلك وقد عدد اسماءها ابن النديم في ست صفحات . ومثله ابو بكر بن زكريا الرازي صاحب المصنفات الممنعة في الطب والعلوم العقلية والادب وهو الذي استنار الغريون لأول نهضتهم بمصنفاته وأول ما طبع عندهم من تأليف العرب كتبه واجادته في تأليفه على كثرة ما كتب منها ما تفاخر به هذه الملة . ومن المكثرين من التأليف والمتفوقين فيه حنين بن اسحق وثابت بن قرة وتأليفهما فلسفية علمية وهما مع الكندي من أئمة النقل من اليونانية الى العربية ومن المحسنين في تواليهم ومن المكثرين من التأليف الغزالي والماوردي وعمرو بن بحر الجاحظ والزحشمري وهذان الأخيران من أئمة المعتزلة قيل في الأول ان تأليفه تعلم العقل وفي الثاني ان تأليفه يكتفى بها في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان والأدب

ولا يظن أن أحداً ألف من الكتب المتنوعة أكثر مما ألف الجاحظ ولا اجاد اجادته في

كل ما خاض عبابه وتآليفه بلغت ٣٥٠ أكثرها من المفقود وبالألف . ومن المكثرين من أئمة المعتزلة القاضي عبد الجبار قيل ان تآليفه التي وضعها في كل فن اربع مائة الف ورقة . ومن أئمة المعتزلة كثيرون من جاوزت مؤلفاتهم المئة والخمسين الف ورقة . وكتب المعتزلة بادت كلها بتعصب خصومهم عليهم ولم يبق منها سوى كتب تعد على أصابع اليد من ألوف ألفوها . وكان خلف بن احمد (٣٩٩) كما قال العتيبي في تاريخه مغشي الجنب من أطراف البلاد لسماحة كفه وغزارة سببه ، وأفضاله على أهل العلم وحزبه ، وقد مدح على السنة الشعراء والعلماء بما هو سائر وذكره في الآفاق طائر . وقد كان جمع العلماء على تصنيف كتاب في تفسير كتاب الله تعالى لم يغادر فيه حرفاً من أقاويل المفسرين وتآويل المتأولين ونكت المذكورين ، واتباع ذلك بوجوه القراءات وعلل النحوي والتصريف وعلامات التذكير والتأنيث ، ووشحها بما رواه الثقات الاثبات من الحديث . وبلغني أنه انفق عليهم مدة اشتغالهم بمعونه على جمعه وتصنيفه عشرين الف دينار ونسخته بنيسابور موجودة في مدرسة الصابونية لكنها تستغرق عمر الكاتب وتستنفد صبر الناسخ الا ان ينقسمها النساخ بالخطوط المختلفة .

قال شارح التاريخ المذكور الفاضل الكرمانى : تفسير خلف مشهور مذكور وهو مائة مجلد وبعض مجلداته نقل الى خزانة الكتب بالمسجد المنيني من مدرسة الصابونية بعد خرابها وهي الآن فيها فلوله من ملك يعني بأمر العلم دونت من العلم ما يبقى له تذكرة على وجه الأيام .

ومن المؤلفين الأول المكثرين من التأليف هشام الكلبي العالم بالنسب واخبار العرب وآيامها ومثالبها ووقائعها المتوفى سنة ٢٠٦ وكتبه يزيد على مئة وخمسين . ومنهم المدائني المتوفى سنة ٢١٥ جاءت أسماء كتبه في نحو اربع صفحات . ومنهم المرزباني من أهل القرن الرابع قال ان تآليفه بلغت ألوقاً من الاوراق . ومن الفقهاء والحفاظ المكثرين من التأليف محمد بن ادريس الشافعي ، وداود بن خلف الاصفهاني ، وابو العباس بن سريج المعروف بالباز الاشهب من أئمة الشافعية ، كانت فهرست كتبه تشمل

على أربعمائة مصنف ، وقيل ان تصانيف الحافظ أبي بكر ابن البيهقي تبلغ الف جزء .
ولأبي بكر ابن الخطيب صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة ٤٦٣ قريب من مئة مصنف
وهو من المجيدين على أكثرهم . وللنسي من كتب الاصول والفقه والحديث والأدب
والتاريخ ما يقرب من مئة مصنف . وكان ابن سبعين من صنف تصانيف كثيرة .
وللأشعري خمسة وخمسون تصنيفاً وهو بالقليل الذي انتهى اليه من كتبه بعد في
رأس المصنفين والمفكرين .

وكان ابو حاتم البستي من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ قال
ياقوت : وكانت الرحلة بخراسان الى مصنفاته وروى عن ابن ثابت ان من الكتب
التي تكثر منافعها ان كانت على قدر ما ترجمها واصفها مصنفات ابي حاتم محمد بن
حبان البستي التي ذكرها لي مسعود بن ناصر الشجري ووقفي على تذكرك باسمائها ولم
يقدر لي الوصول الى النظر فيها لأنها غير موجودة بيننا ولا معروفة عندنا وانا اذكر
منها ما استحسنت سوى ما عدلت عنه واطرخته . وهنا عدداً فحاش زهاء مائتين وخمسين
جزءاً والنموذج الذي انتهى اليه منها بعد غاية الكمال في التفكير الجيد والاحاطة
العظيمة بأطراف الموضوع . وبلغت مصنفات ابي بكر بن فورك المتكلم الاصولي
الاديب النحوي الواعظ قريباً من مئة مصنف .

ولأبي الحسين الراوندي صاحب المقالة المشهورة في علم الكلام ، وهو الذي
ينسب اليه اليوم ظلماً كل كلام فيه مفسطة ومغالطة وكفر ، من التأليف نحو مئة واربعة
عشر كتاباً مع انه لم يتجاوز الاربعين من عمره .

ولحي الدين بن عربي تأليف كثيرة ذكر في اجازة كتبها للملك المعظم انه اجازها
ان يروي عنه مصنفاته ومن جملتها كذا وكذا حتى عدت نيفاً واربعائة مصنف ،
والف رسالة عدد فيها كتبه كما جرت عادة بعض المؤلفين ان يترجموا انفسهم
ويذكروا مؤلفاتهم في رسائل خاصة مخافة ان يبدس عليهم بعضهم ما لا يروقه
ويقول فيهم ما ليس فيهم .

وابن سعيد الأندلسي المؤرخ من المكثرين من التأليف ومنها الموضوعان الغريبان

المتعددا الاسفار وهما المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق وغير ذلك قال لسان الدين حدثني الوزير ابو بكر بن الحكيم انه خلف كتاباً يسمى المرزمة يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والاخبارية الا الله تعالى .

ومن المكثرين من التأليف لسان الدين بن الخطيب وابو العلاء المعري ولهذا كتاب سماه الأيك والغصون وهو المعروف بالهمزة والردف يقارب المئة جزء، في الأدب قال ابن خلكان: وحكي لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف قال لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد . ومن المكثرين القاضي الفاضل قال ابن خلكان: اخبرني أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة امره ان مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات في الاوراق اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد . وكان الحاجب المنصور ابو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المدعو بالافطس أدبياً جليلاً ومن تأليفه الكتاب المظفري المسمى بالتذكرة في خمسين مجلداً . وكتب عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف نحو مئة وخمسين كتاباً وذلك في سياحات له طويلة دامت نحو اربعين سنة في العراق والشام ومصر والروم وليس لنا منها اليوم سوى أوراق قليلة وكلها ممتعة .

ومن المكثرين من التأليف والمتوسعين فيه احمد بن ابان بن السيد اللغوي الاندلسي يعرف بصاحب الشرطة ، وهو مصنف كتاب العالم في اللغة نحو مئة مجلد مرتب على الاجتناس بدأ بالفلك وختم بالذرة وله في العربية واللغة كتب أخرى . ومثله ابن سيدة الضرير صاحب المخصص والحكم وغيرهما وهو من المكثرين من التأليف والحفظ المبرزين في تأليفهم وكتابه المخصص آية في بابه .

ومن المكثرين ابو اسحق ابراهيم بن الاعلم البطليموسي له نحو خمسين تأليفاً . وبلغت تأليف محمد ابي طالب القرطبي المتوفى سنة ٤٣٧ - ٧٧ تأليفاً والاف عيسى ابن عمر النخوي نيفاً وسبعين مصنفًا في النحو قال سيديويه : جمعها بعض اهل اليسار وأتمت عنده عليها آفة فذهبت ولم يبق في الوجود سوى كتابين .

ومن المكثرين من التأليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي المتوفى سنة ٢٣٨ قال المقرئ رأيت في بعض التواريخ ان تواليفه بلغت ألفاً ومن اشهرها كتاب الواضحة في مذهب مالك . ولأبي عمرو الداني القرطبي من علماء القرآن مئة وعشرون مصنفًا . وكان يقول : ما رأيت شيئاً قط الا كتبتنه ولا كتبتنه الا حفظته ولا حفظته فنسبته ، طبع علماء المشرقيات بعض ما عثروا عليه من تأليفه فرأينا فيها عجباً من ابداعه . وآخر من له التأليف الكثيرة من أئمة الأندلس ابو الحسن القلصادي المتوفى سنة ٨٩١ واكثر تصانيفه في الحساب والفرائض .

ومن عرفوا بسعة التأليف احمد بن ابي عبد الله من الامامية فان ما كتبه بلغ مائة تصنيف . ومن فقهاء الامامية ابو النصر العياشي ذكر ابن النديم اسماء كتبه في نحو صفحتين . ومنهم الاسكافي بلغت تأليفه سبعين كتاباً وكلها جيد مفيد .

ويقال ان تواليف ابي جعفر بن النحاس تزيد على خمسين منها شرح عشرة دواوين للعرب وذكروا ان محمد بن جماعة من أهل القرن الثامن كان اعجوبة زمانه في العلم وليس له في التأليف حظ مع كثرة مؤلفاته التي جاوزت الألف فان له على كل كتاب اقرأه التأليف والتأليفين والثلاثة واكثرها من شرح مطول ومتوسط ومختصر وحواش ونكت الى غير ذلك وكان يعرف علوماً عديدة منها الفقه والتفسير والحديث والاصلاص والجدل والخلاف والنحو والصرف والمعاني والبيانات والبديع والمنطق والهيئة والحكمة والزيج والطب والفردسية والرمح والنشاب والدبوس والثقاف والرمل وصناعة النفط والكيمياء وفنون أخر وعنه انه قال : اعرف ثلاثين علماً لا يعرف اهل عصري اسماءها .

ومن الذين اكثروا من التأليف احمد بن مكتوم من اهل القرن الثامن وعبد الرحمن الانباري من أهل القرن السادس وعيسى اللخمي الاسكندراني من أهل القرن السادس وثقي الدين السبكي من أهل القرن الثامن وله مئة وخمسون تصنيفاً والجلال السيوطي من اهل القرن العاشر اطلعنا على فهرست كتبه في سبع ورقات

وربما لا تقل عن اربعائة مجلد وفيها الجيد ، واتهم بأنه سلع او مسخ بعض المؤلفات وادعاها . ومنهم الصلاح الصفدي والمقرئزي وابن فضل الله وابن المكرم صاحب اللسان وكلهم من المكثرين من التصنيف والذين بلغوا غاية في الاجادة . ومنهم علي ابن زيد البيهقي من أهل القرن السادس ألف نحو ثمانين كتاباً بالعربية والفارسية .

وأمجوبة المؤلفين ابو موسى جابر بن حيان قال : الفث ثلثائة كتاب في الفلسفة وألفاً وثلثائة كتاب في الحيل على مثال كتاب نقاط (؟) وألفاً وثلثائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب ، ثم الفث في الطب كتاباً عظيماً والفث كتباً صغاراً وكباراً ، والفث في الطب نحو خمسمائة كتاب الى ان قال : ثم الفث كتباً في الزهد والمواعظ والفث كتباً في العزائم كثيرة حسنة ، والفث كتباً في النيرنجيات ، والفث في الاشياء التي يعمل بنحوها كتباً كثيرة ، ثم الفث بعد ذلك خمسمائة كتاب تقدأ على الفلاسفة ثم الفث كتاباً في الصنعة (الكيمياء) يعرف بكتب الملك وكتاباً يعرف بالرياض .

* * *

التأليف في الأمم كالأشخاص منها العاقل والجيد والاجود ، والعاقل يقضى عليه ولا يبقى لأنه ساقط بطبعه ، والجيد قد يدوم لفائدة قليلة فيه ، اما الاجود فباق بقاء الأيام ، وكلما ذكر اسم صاحبه حلا في الأفواه وتطلعت نحوه العيون . كان المحودون من المؤلفين في القرون الأولى للإسلام أكثر من المحودين في القرون الاخيرة ، لأن العلوم كانت أرقى والملوك يحرضون عليها ويأخذون بأيدي أهلها والأمة تبع ملوكها في باب العناية بها وبأهلها .

وانا اذا قلبنا صفحات التاريخ ، نجد في كل عصر العشرين والثلاثين من الرجال المبرزين ، وهؤلاء يجب أن يشاد بذكرهم كل حين . فمنهم ابو بكر بن مجاهد العارف بالقرآت وعلوم القرآت وهو آخر من انتهت اليه الرئاسة بمدينة السلام (توفي سنة ٣٢٤) ومنهم الخليل بن احمد (١٧٠) وهو أول من استخرج العروض وغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس . ومنهم صاحبه سيويه قال ابن النديم وعمل كتابه الذي

لم يسبقه الى مثله أحد قبله ولم يلحق به بعده . قرأت بخط أبي العباس ثعلب اجتمع على
صنعة كتاب سيبويه اثنان واربعون انساناً منهم سيبويه والاصول والمسائل للخليل .
ومنهم ابو عبيدة (٢١٠) والاصمعي (٢١٠) وابوحاتم السجستاني (٢٥٥) والمبرد (٢٧٩)
والزجاج (٣١٠) ومنهم ابن دريد (٣٢١) وابو سعيد السيرافي (٣٦٨) وابو الحسن الرماني
وابو علي الفارسي (٣٧٠) والكسائي (١٩٧) والفراء (٢٠٧) والمفضل الضبي وابن الاعرابي
(٣٣١) وابو عبيد القاسم بن سلام . وابن السكيت (٢٤٦) وابن قتيبة قال صاحب
الفهرست انه كثير التصنيف والتأليف وكتبه في الجبل مرغوب فيها . وابو حنيفة
الدينوري وابن خالويه ٣٧٠ وابن جني ٣٩٢ وابن اسحق صاحب السيرة قال ابن النديم
وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسمهم في كتبه اهل العلم الأول (١٥٠) وهشام
الكلي قال اسحق الموصلي : كنت اذا رأيت ثلاثة يرون ثلاثة يذوبون علوه اذا
رأى مخارقاً وابا نواس اذا رأى ابا العتاهية والزهري اذا رأى هشاماً (٢٠٦) والواقدي
وهو الذي خلف بعد وفاته ستمائة قطر كتباً كل قطر منها حمل رجلين وكان له غلامان
مملوكان يكتبان الليل والنهار وقبل ذلك بيع له كتب بألني دينار (٢٠٧) والمدائني
(٢٢٥) والبلاذري صاحب كتاب البلدان واحد النقلة من الفارسي وابو الفرج
الأصفهاني (٣٦٠) وعبد الله بن المقفع .

قال ابن النديم الكتب المجمع على جودتها عهد ازدشير وكتيلة ودمنة ورسالة عمارة
ابن حمزة الماهانية والبيضة لابن المقفع ورسالة الحسن لأحمد بن يوسف الكاتب وسهل
ابن هرون وكان ابو عثمان الجاحظ يفضلُه ويصف براعته وفصاحته . وقدامة بن جعفر
والمرزباني (٣٧٨) والصائي وابوزيد البلخي كان فاضلاً في العلوم القديمة والحديثة
تلا في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الفلاسفة الا انه بأهل الأدب أشبه . واسحق الموصلي
وبشار بن برد وابو نواس وابن الرومي والبحتري ومالك ابن أنس والشافعي وابو حنيفة
وابن حنبل وابو يوسف والمزني ودادود بن علي وابو عبد الله البخاري وابن جرير الطبري
ويحيى النخعي ومتى بن يونس ويحيى بن عدي وابن زرعة وبنو مومى بن شاكر وثابت
ابن قرة وابراهيم بن سنان وعمر بن الفرخان ومحمد بن مومى الخوارزمي قال ابن النديم

وكان منقطعاً الى خزانة الحكمة للأُمون وهو من اصحاب علوم الهيئة وكان الناس قبل الرصد بعده يعولون على زيجيه الاول والثاني ويعرفان بالسند هند وبنو الصباح محمد وابراهيم والحسن قال في الفهرست والجميع من حذاق التجمين بعلوم الهيئة والاحكام والبتاني صاحب الزيج وحنين بن اسحق العبادي ، وقسطا بن لوقا البعلبي ويوحنا بن ماسويه واسحق بن حنين وجابر بن حيان .

ومنهم ابن وحشية وابن السيد البطليوسي قال ابن خلكان وهو مجيد في كل ما صنعه وكال الدين بن بونس (٦٣٩) قال ابن خلكان تبحر في جميع الفنون وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد وتفرد بعلم الرياضة وكان أهل الذمة يقرؤون عليه التوراة والانجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحاً يعترفون انهم لا يجدون من يوضحها لهم مثله وكان في كل فن من الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوته فيه . واحمد بن الطيب السرخسي كان متفتناً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب حسن المعرفة جيد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف والتأليف (٢٨٦) وثابت بن قرة لم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة وله تصانيف مشهورة بالجودة وكذلك جاء جماعة كثيرة من ذريته ومنهم ابو سعيد ابنه سنان وابو الحسن ثابت بن سنان . وابو علي بن زرعة وعلي بن العباس الجومي مصنف كتاب الملكي في الطب وابو الفرج بن الطيب وابو الحسن بن بطلان وابن الشبل البغدادي وابن رضوان وسعيد بن هبة الله وابن جزالة وامين الدولة بن التلميز والبديع الاسطرلابي وابو الخير الحسن بن سوار وابو الفرج ابن هندو والرئيس ابن سينا وابو الفرج بن الطيب احيا من علوم الحكمة والمنطق مادثر وابان منها ما خفي وقد تلمذ له جماعة سادوا وأفادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان . قال ابن بطلان : ان شيخنا ابا الفرج بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاد يلفظ نفسه فيها وهذا يدل على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه . ولعلمهم لقبوه بالمفسر لاستغراقه في تفسير ما بعد الطبيعة . وغفر الدين الرازي وابن جلجل والتافي الاندلسي قال ابن ابي أصيبعة وكتابه في الأدوية المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه . وامية بن الصلت

وابن باجة وابو العلاء بن زهر وابن رشد وابن الرومية والمبشر بن فائق وله تصانيف جليلة في المنطق وغيره من اجزاء الحكمة وهي مشهورة فيما بين الحكماء . والخطيب التبريزي والقطب الشيرازي والامام القزويني والجوهري وابن الحاجب ونصير الدين الطوسي وابن دقيق العيد وسيف الدين الآمدي والبيضاوي وابن البيطار وهؤلاء الثلاثة خلدوا بما صنفوا وأجادوا وأفادوا . وابن مجلي الموصلية وابن فلوس المارديني وابن مسكويه والمسعودي وابن خلدون وابن الاثير وابو الفدا وهؤلاء الخمسة اكبر الدعائم في تاريخ العرب كتبت لهم الاجادة التي ليس بعدها اجادة . وافضل الدين الطونجي قال ابو الفرج بن العبري وفي هذا الزمان اي في النصف الأول من القرن السابع كانت جماعة من تلامذة الامام فخر الدين الرازي سادات فضلاء أصحاب تصانيف جليلة في المنطق والحكمة كزين الدين الكشي وقطب الدين المصري بخراصات وافضل الدين الطونجي بمصر وشمس الدين الخسروشاهي بدمشق واثير الدين الابهرى بالروم وتاج الدين الأرموي ومسراج الدين الأرموي بقونية . وعبد المنعم الجليلاني وابن الصلاح وموفق الدين ابن المطران وشرف الدين بن الرحي والصاحب امين الدولة السامري وابن عبد ربه والبديع الهمذاني والحسن بن رشيق القيرواني . وابو هلال العسكري وابن جني وما طبع من كتبهما يأخذ بمجامع القلوب لما حوى من تحقيق وتدقيق .

وعمل حسان بن مالك بن ابي عبدة الوزير احد ائمة اللغة والآداب ومن اهل بيت جلالة ووزارة مثل كتاب ابي السري سهل بن ابي غالب الذي الف في أيام الرشيد كتاباً سماه بكتاب ربيعة وعقيل قال ابو محمد ابن حزم وهو من اصلح مآلف في هذا المعنى وفيه من اشعاره ثلثائة بيت وكان سبب تأليفه اياه انه دخل على المنصور ابي عامر محمد بن ابي عامر وبين يديه كتاب ابي السري يعجب به فخرج من عنده وعمل هذا الكتاب وفرغ منه تأليفاً ونسخاً وتصويراً وجاء به في مثل ذلك اليوم من الجمعة الاخرى وأراه اياه فسر به ووصله عليه .

ومنهم صاعد بن الحسن الربيعي وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار . ومنهم
الراغب علي بن الحسين الاصمعياني والشريف المرتضى والقاضي الجرجاني وعلي بن
عبدة وابو حيان التوحيدي وابن القفطي والقلقشندي والنويري والحصري وابو علي
الفارسي وابو العلاء المعري وابن العديم والحريري . وابن الصائغ والقاضي ابو الفرج
المعافي قال ابن خلكان كان فقيهاً أديباً شاعراً عالماً بكل فن وله عدة تصانيف
ممتعة في الأدب وغيره وكتاب الجليس الانيس تصنيفه أيضاً (٣٩٠) وواصل بن
عطاء وياقوت الحموي ويحيى بن اكرم وابن السكيت وابن عبد البر وابن ابي الحديد
شارح نهج البلاغة . وابن الانباري وعبد القاهر الجرجاني وابو اسحق الاسفرايني
قال ابن خلكان اخذ عنه الكلام والاصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له بالعالم اهل
العراق وخراسان وله التصانيف الجليلة (٤١٨) وابو اسحق الشيرازي قال ابن خلكان
انه صنف التصانيف المباركة المفيدة (٤٩٦) وابو حامد الاسفرايني (٤٠٦) وابن زيدون
وابو الفضل الميداني (٥١٨) والثعالبي صاحب اليتيمة والقاضي عياض قال ابن خلكان:
صنف التصانيف المفيدة قال وبالجملة فكل تواليفه بديعة . والقاضي الباقلاني وابو الحسين
البصري له التصانيف الفائقة في أصول الفقه وانتفع الناس بكتبه والحاكم النيسابوري
قال ابن خلكان امام اهل الحديث في عصره والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق الى
مثلها (٤٠٥) وابن دريد صاحب الجمهرة . وابو بكر الانباري (٣٢٨) والمسبحي (بالباء
لا بالياء) صاحب التاريخ المشهور وغيره من المصنفات (٤٢٠) وابو العباس القرطبي
انتفع الناس بكتبه واجاد فيها وعيسى بن دينار الاندلسي صاحب كتاب الهداية
الذي يقول فيه ابن حزم انه ارفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن
القاسم واجمعها للمعاني الفقهية ومالك بن علي الفهري صاحب القصي وابو عبد الرحمن
بقي بن مخلد صاحب التفسير الذي قال فيه ابن حزم انه الكتاب الذي اقطع قطعاً
لا استثنى فيه انه لم يؤلف في الاسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري
ولا غيره وان تأليفه قواعد الاسلام لا نظير لها .

ومن الأندلسيين أيضاً القاضي منذر بن سعيد وابو محمد قاسم بن اصبح ومحمد ابن عبد الملك بن أيمن ويوسف بن عبد البر وابو الوليد الفرضي وابن سعيد المؤرخ والقاضي محمد بن لبانة والقاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق واسماعيل بن القاسم وابن القوطية وابن التيااني واحمد بن فرج وابو الحسن الكاتب واحمد بن محمد بن موسى الرازي وحسين بن عاصم واسحق بن سلمة الليثي وابو مروان بن حيان صاحب التاريخ الكبير في أخبار اهل الأندلس نحو عشرة أسفار قال ابن حزم هو أجل كتاب ألف في هذا المعنى وله كتاب المتين في التاريخ وهو في سنتين مجلدة ومحمد ابن عاصم . قال ابن حزم وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن اسحق وهي كتب حسنة رفيعة وكتب محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني وهي كتب رفيعة حسنة وكتاب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي ولئن قلنا انه لم يؤلف في الطب اجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن . وفي الفلسفة كتب سعيد بن فتيون السرقطي المعروف بالحمار وابي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي . وفي الأزياج مسلمة وابن السمع واحمد بن نصر ومحمد بن عطية الغرناطي والحميدي والباجي وابن 'بشكوال وابن بسام صاحب الذخيرة . وابو القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي وعريب بن سعيد القرطبي وابو محمد عبد الله بن ابراهيم الحجاري صاحب كتاب المسهب في فضائل المغرب لم يصنف في الأندلس مثل كتابه . وابو عبد الله بن ابي الخصال الشقوري صاحب مراجع الأدب وابن عصفور الاشبيلي النحوي . وابن الطراوة والسهلي وابن خروف وابو عبيد البكري الاووبي صاحب كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك . وابو علي الشلوبين وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان المقدم في علم الفلسفة وابن جبير صاحب الرحلة وابو علي القسالي صاحب الأمالي قال الضبي وكانت كتبه على غاية التقيد والضبط والاتقان وقد ألف في علمه الذي اختص به (اللغة والأدب) تواليف مشهورة تدل على سعة روايته وكثرة اشرافه وقالوا لئن كان كتاب ابي العباس المبرد (اي

الكامل) أكثر فحواً وخبراً فات كتاب ابي علي (النوادر) أكثر لغةً وشعراً
ومن كتبه في اللغة البارع كاد يحتوي على لغة العرب و كتابه في المقصور والمحدود
والمهموز لم يؤلف في بابه مثله وتوفي سنة ٣٥٦
هذا ما أمكن جمعه من أسماء المؤلفين من العرب والمجودين فيه وما ذكرناه
نموذج يتيسر التوسع فيه فيكون منه جزء مهم يقرأ دليلاً على سعة فضل العرب
وبعد انظرهم في خدمة الدين والدنيا .



مخطوطات ومطبوعات

كتاب الذخيرة في علم الطب

تأليف

ثابت بن قرّة

هو ابو الحسن ثابت بن قرّة الحراني المولود يوم الخميس في ٢١ صفر سنة ٢١١ هجرية الموافقة للسنة ٨٢٥ مسيحية والمتوفى سنة ٢٨٨ هجرية الموافقة للسنة ٩٠٠ مسيحية عن سبعة وسبعين عاماً في زمن الخليفة العباسي الموفق بالله . وكان طبيباً شهيراً من أعظم أطباء العصر العباسي كثير التصنيف والتأليف فوضع من الكتب الطبية ما يزيد عن الخمسة والثلاثين مجلداً . وكان فيلسوفاً كبيراً من اعظم فلاسفة عصره ورياضياً بارعاً وفلكياً قديراً وله في الفلك والرياضيات عدد من المخطوطات التي لا تزال محفوظة في المكتبة الاهلية بمصر . وكان يجسن اللغة السريانية وسواها من اللغات الشائعة في عصره فترجم منها شيئاً كثيراً الى اللغة العربية . وروى ابن أبي أصيبعة عنه في كتاب طبقات الأطباء انه وعى في صدره شتى العلوم فألف في الفلك والدين واللغات والموسيقى وغير ذلك .

وكان من صابئة حران حيث اشغل في اول عهده جايلاً للضرائب . ثم انه صحب محمد بن مومى حين ترك بلاد الروم فراه وافر الذكاء وقدمه الى جماعة المنجمين الذين كان جلهم من الصابئين في بغداد مدينة السلام . وتروى عنه حكايات كثيرة وردت جميعها مفصلة في كتاب طبقات الأطباء لابن ابي أصيبعة . وكان من أخص تلامذته عيسى بن اسيد المسيحي فلزام هذا أستاذه ونقل باشرافه عدداً من الكتب السريانية الى اللغة العربية .

وكتاب الذخيرة ألفه ثابت بن قرّة لولده سناب الذي كان طبيباً عالماً نظير أبيه . وذكر ابن القفطي في كتابه تاريخ الحكماء مانصه « وفي ابدي الناس

كناش عربي جيد يعرف بالذخيرة» وقال عنه ابن ابي أصيبعة « كناشه المعروف بالذخيرة ألفه لولده سنان بن ثابت » . ويبدأ الكتاب بهذه العبارة : هذا كتاب الذخيرة الذي يشتمل على ما يحتاج اليه من علم الطب في وصف الداء والدواء على اوجز ما ينهيا ان يكون تجربة امام زمانه (ثابت بن قرة) في العلوم الطبيعية جمعه أيام حياته (لابنه سنان بن ثابت بن قرة) وهو واحد وثلاثون باباً .

والكتاب الذي بين يدينا طبع في مصر ونشره الدكتور ج . صبحي أحد أساتذة الجامعة المصرية نقلاً عن مخطوطته الاصلية بمناسبة الاحتفال المثوي لمستشفى قصر العيني في القاهرة وقد صدره بمقدمة باللغة الانكليزية ليستطيع الأطباء الانكليز من حضروا الاحتفال المذكور الاطلاع على موضوع الكتاب والوقوف على اساليب المداواة التي كانت شائعة عند العرب . ثم ان الناشر اتبع المقدمة بمعجم عربي انكليزي حوى جميع ما ورد في الكتاب من الألفاظ الطبية وأسماء العقاقير فسهل مطالعته على الأطباء العرب والمستشرقين . وذكر الناشر ان وضع هذا المعجم كان على جانب عظيم من الصعوبة لأسباب منها ان العدد الكبير من اسماء الأمراض والنباتات الواردة في الكتاب معرب من اللغات اليونانية والفارسية والسريانية وان تحقيق اللفظة الواحدة كان يتطلب في كثير من الأحيان مراجعة عدد كبير من المؤلفات . وأعلن الناشر انه تمكن من الحصول على مخطوطة الكتاب من خزانة كتب المغفور له كيرلس الثامن بطريرك الاقباط وان هذه المخطوطة ذات شأن كبير لأنها الفريدة الباقية . ولأنها لم تنشر قبلاً باللغة العربية ولم تترجم الى احدى اللغات الأجنبية .

وأورد الناشر في مقدمته لمحة موجزة عن تاريخ الطب العربي فذكر ان العرب نقلوا جله عن اليونانيين وأضافوا اليه بعد ذلك شيئاً يسيراً مما اخذوه عن الفرس والمصريين وانهم وان لم يزدوا من عندهم شيئاً مما اقتبسوه من الأمم الأخرى فلهم الفضل في أنهم تمكنوا من الاحتفاظ بالتراث القديم فصانوه من الضياع . وهم

الذين تناولوا من يد اليونانيين مشعل الطب الذي أخذ بالانطفاء فلم تحمد ناره في أيديهم بل صانوه طيلة خمسة قرون ثم سلّموه الى من جاء بعدهم وهو اشدّ اشتعالاً وتألقاً .

وعقب الفتوحات العربية في القرن السابع نهضة فكرية عجيبة بلغت اوجها في القرنين الثامن والتاسع حين امتدت الدولة العربية من الدجلة الى ضفاف الوادي الكبير في الأندلس وأولع الخلفاء باقتناء المخطوطات النفيسة فكانوا يبذلون كل ما في وسعهم للحصول عليها لنقلها الى العربية ، حتى ان احد الفاتحين منهم حين املائه شروط الصلح على خصمه الامبراطور البيزنطي طلب ان يكون من حقه جمع المخطوطات اليونانية .

ثم ان الناشر يحاول ان يثبت ان اليونانيين نقلوا الطب عن العلوم المصرية حتى ان بعض الروايات تشير الى ان جالينوس تلقى علومه في مصر . على ان الأقدار شاءت ان لا يصل اليها من العلوم المصرية الا النزر اليسير ولو ان ما بلغنا منها كافٍ اذن لكان تاريخ الطب القديم غير ما هو عليه ولكننا نجد بين صفحاته من أسماء الأطباء المصريين القدماء غير اسم جالينوس وابقراط اليونانيين . واذا كانت مصر الحديثة تأخذ علومها عن اوربة فان هذه ترد اليها الآن ما اقتبسته منها في الازمنة الخالية حين كان العلم مستقرّاً في هليوبوليس والاسكندرية .

وقسم ثابت بن قرّة كتابه واحداً وثلاثين باباً بعض منها يتناول حفظ الصحة ولا يزيد عن اربعة ابواب والباقي يبحث في ما كان معروفاً من الأمراض الباطنة والظاهرة والجراحية وهي مرتبة بحسب اسبابها او بحسب الأعضاء التي تصيبها . وبلي كل مرض كيفية معالجته وفقاً للنظريات الشائعة في ذلك الحين ، والوصفات الطبية المستعملة في مداواته ومعظم هذه الوصفات مأخوذ عن جالينوس . والقليل منها عن ابقراط او سواء من قدماء المؤلفين .

ويذكر المؤلف في بعض المواضع نتائج تجاربه ومشاهداته الخاصة . وفي الجملة

فان كتاب الذخيرة مؤلف طبي كتب للطبيب الممارس ليكون مرجعاً له في اعماله اليومية وهو مبني على النظريات الطبية اليونانية وتسيطر عليه نظرية الاخلاط والارجح ان هذه النظرية وضعت في مدرسة الاسكندرية ثم تبناها جالينوس ونقلها عنه اطباء السريان الذين نقلوها بدورهم الى اطباء العرب .

وخلاصة هذه الفكرة كما كانت تفهمها العرب ان الجسد مركب من الجواهر الأربعة وهي الأرض والنار والماء والهواء ونسبها فيه مختلفة . والادوية مركبة من هذه الجواهر الاربعة ذاتها وتكتسب منها العناصر الاربعة البرد والحر والرطوبة واليبس . ومن النادر ان تتوازن الجواهر الاربعة في الجسد ليحافظ على اعتداله بل ان احدها او اثنين منها يتغلبان فيصبح بارداً او رطباً او يابساً او حاراً ، وانه قد يكون في الوقت ذاته يابساً وحاراً او رطباً وحاراً . وقد لا تتساوى درجات هذه الصفات في الجسد فيصبح الشخص خليطاً لانتحارها فيه بدرجات متفاوتة او ان يتغلب فيه العنصر الواحد على سائر العناصر . وهكذا الحال في الأدوية فالمسك حار ولكنه اقل من الثوم والخردل ، والخبازي باردة ولكنها اقل من النيلوفر . ولكل من الحر والبرد والرطوبة واليبس اربع درجات ولكل من هذه الدرجات المختلفة طائفة من الأدوية . فيقال ان كذا او كذا دواء حار في بدء الدرجة الثانية او يابس في نهاية الدرجة الثالثة وقس عليه . فالصفات العامة للأدوية تألف اذن من اجتماع طبائعها الأولية . وفضلاً عن ذلك فللأدوية بعض الطبائع الخاصة . ثم ان أسباب الأمراض تسنتج أيضاً من هذه العقيدة العنصرية فيكون سببها الحر او البرد او الرطوبة او اليبس فتداوى بالأدوية ذات الطبائع المعاكسة .

ومع ان ثابت بن قرة عاش في القرن التاسع فان المخطوطة التي نقل عنها الناشر مكتوبة في السنة ١٢١٠ بعد المسيح اي بعد وفاة المؤلف بثلاثمائة وعشر سنين وهي تنتهي بهذه العبارة « تم كتاب الذخيرة بحمد الله ومنه والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه الأكرمين وقع الفراغ من نسخه يوم السبت سابع جمادى الأولى سنة سبع وستمائة » انتهى .

مرشد خاطر

المختار

أحب الدكتور طه حسين بك في تقديمه الجزء الثاني من كتاب «المختار» أن يجعل بين الشيخ عبد العزيز البشري وبين صاحب الأغاني نسباً في اللغة ، أما أنا فاني أحب أن أذهب مذهباً أبعد ، اني أحب أن أجعل هذا النسب بين صاحب «المختار» وبين الجاحظ نفسه ، فالشيخ عبد العزيز البشري قد انسحب على أذبال الجاحظ في بعض فنه ، فان له تصرفاً في مفردات اللغة غير يسير ، ولقد زاد في محاسن تصرفه صفاء ذوقه ، واذا شئت ان أجمل الرأي في فن الشيخ عبد العزيز البشري فلا أجد عبارة أصح من عبارته في الشيخ سيد درويش ، فهو يقول فيه : وللرجل أذن موسيقية ، وله حس مرهف ، وفيه ذوق تام دقيق .

ولئن صدقت هذه الصفات في الشيخ سيد درويش فانها في الشيخ عبد العزيز البشري أصدق ، ولعل هذه الأذن الموسيقية هي التي مكنت صاحب «المختار» من إرسال ما أرسله من الكلام في فريق من رجال الموسيقى ، الذين حضر مجالسهم ، حتى استطاع ان يذوق محاسنهم ، وان ينبه على مقابحهم ، وان يذهب في الاشارة الى ترددهم وترنيمهم ، والى ترجيعهم وتنغيمهم هذا المذهب الذي ذهبه ، وما أظن ان قلماً من الأقلام في هذا العصر يستطيع أن يجري في وصف رقيق الاصوات وأجسها ، أو في وصف فنون النغم بمجامعها مجرى قلم الشيخ عبد العزيز البشري . ولا ريب في أن هذه الأذن الموسيقية التي خلقها الله لشيخنا البشري هي التي أعانته على تهذيب ذوقه اللغوي ، واذا جعلت بينه وبين الجاحظ نسباً في اللغة فاني لا أرمي الكلام على عواهنه فان له مقاطع في كلامه على الشيخ علي بوسف او على الشيخ سيد درويش ، او في مواطن غير هذه المواطن ، تظهر عليها آثار بلاغة الجاحظ .

واذا كان الشيخ عبد العزيز البشري نسيج وحده في شيء ، فانه نسيج وحده في تصوير الرجال ، فقد أعطاه الله كثيراً من خصائص التصوير ، فلا يكاد بتعاضمه

شيء من الكلام على هيآت المصورين ، وعلى عقولهم وعلى قلوبهم ، وله في هذا الباب لهجة خاصة تباغت القارئ فقليله وتسره ، وهذه اللهجة انما هي سر الصنعة في التصوير فلا يكاد يتفقت منه لفظ في هذا المجال ، ولو انصرف الشيخ عبد العزيز البشري ، وقد اختصه الله بما اختصه به من دقة البيان وطبعه على مثل ما طبعه عليه من التهكم ، الى مراقبة أخلاق أهل عصره ، على نحو ما فعله الكاتب الفرنسي « لا بروير » : في القرن السابع عشر ، ودون نتائج هذه المراقبة في كتاب منفرد ، غير كتابه : في المرأة ، من دون أن يشتت رأيه في طائفة من الرجال لما ذهب أثر كتابه سجنس الليالي !

ولقد حملته قدرته في بيانه على التجوز في بعض الأحيان في أمر من أمور النحو أو اللغة وهذا شأن كثير من أكابر الكتاب ، فانهم يتجاوزون في طائفة من مواضع يباينهم في مذاهب النحو واللغة اعتقاداً منهم ان هذا التجوز تغطي عليه حسناتهم . فهل يضر شيخنا الجليل ان يقول في بعض كلامه : قد لا يكون . . . وهو يعلم العلم كله ان « قد » هذه متصلة بالفعل المتصرف ، الخبري ، المثبت ، المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، لا يفصل بينها وبينه فاصل ، اللهم الا القسم . وهل يضر شيخنا الجليل ان يدخل : معها ، على الفعل الماضي ، فيقول : معها كان ، ومهما استحدث . . . وهو يعلم العلم كله ان « معها » من الجوازم ، ويحيط الاحاطة كلها بمعانيها الثلاثة : معها تأتينا به من آية . . . على ان المجتري أغضى قديماً على دخول « معها » الفعل الماضي ، ولم يذهب هذا الاغضاء بسحر شعره !

أم هل يضره ان يأتي بالتوكيد المعنوي قبل المؤكد ، فيقول في بعض كلامه : في نفس اليوم ، بدلاً من ان يقول : في اليوم نفسه ، وهو يعلم العلم كله ان التوكيد المعنوي يأتي بعد المؤكد !

أم هل يضره ان يستعمل فعلاً بتعدى بالحرف ، فيستغني عن هذا الحرف ، فيقول : ثم تقبل على صيغته ، تفقشها وتفرقها ، وهو يعلم انه يقال : قرّ الدابة ، كشف عن أسنانها لينظر ما سنّها ، وفرّ عن الأمر ، بحث عنه .

ان هذا كله لا يذهب بحسنات الشيخ عبد العزيز البشري ، فله أن يجمع صديقاً على صدقان اذا شاء ، وله أن يستغني عن جمعها على أصدقاء وصدقائه ، وله أن يقول : مضعوف البدن من أضعفه الله ويعدل عن : ضعيف البدن ، ان هذا كله صحيح ، وكله فصيح ، غير ان تباعد الشيخ الجليل عن أشباه هذا المألوف من الجمع ، وامرافه في تنخله بعض ألفاظه ، مثل قوله : زلت له هذه الخلّة ، بدلاً من قوله : جاءته . يقبحانه في الذي نسميه التنطع في الكلام وقد نزهه الله عن كل تنطع وتنطس . على اني ارجو ان اكون قد أخطأت في هذه النظرات العجيبة ، فان الشيخ عبد العزيز البشري يغرف في البلاغة من بحر لا تكدره امثال هذه المكدرات .

شفيق جبري



كتاب السلوك

لمعرفة دول الملوك

طبع في القاهرة بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩

قيل ان المؤرخ الكبير نقي الدين احمد بن علي المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ مؤلف هذا الكتاب قد زادت تصانيفه على مئتي مجلد كبار . ومهما كان هذا العدد مبالغاً فيه فالمقرئ بلا جدال من المكثرين من التأليف والمجودين فيه . وقد طبع بضعة منها حتى الآن وأهمها « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو السفر الذي اصبح اكبر مرجع الكل من يريد البحث في عمران مصر وتاريخها منذ القديم الى عصر المؤلف . ومما طبع له « التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم » (ليدن) « ذكر ماورد في بني أمية وبني العباس (فينا) « الدرر المضية في تاريخ الدولة الاسلامية » (كمبردج) النقود الاسلامية (الاستانة) « انعاظ الخلفاء

بأخبار الخلفاء» (القدس) وطبع في مصر «البيان والاعراب عما في ارض مصر من الأعراب» «الأوزان والمكاييل الشرقية» «الطريقة الغربية في أخبار حضرموت العجبية»

ومما أبقت عليه الايام من كتب المقريري «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» وهو تاريخ مفصل للملوك الاكراد الايوبية والساطين المماليك التركية والجر كسية . وفيه تراجم مختصرة لبعض المشاهير الذين توفوا في كل سنة . وقد كتبه مؤلفه على نظام الحوليات وتنوّق فيه واخذ من المصادر المعتمدة التي يكاد بعضها يكون الآت في حكم المفقود . ولم يحاول ان يربط بين الحوادث فيجعل المتماثلات في ناحية معينة كما فعل ابن خلدون وابن الأثير بل اطلق عنوان قلمه في التدوين على السنين والشهور .

وبقع الباحث في هذا السفر الجليل على حوادث مهمة قد لا يجدها في الكتب المطبوعة في فن التاريخ العربي ، ويقرأ في حوادث الايوبيين والمماليك واخبار ملوكهم وأمرائهم وما تحلل تلك العهود من الوقائع ما يظن نفسه معه امام قصص وروايات سرمد فيها الدقيق والجميل من الحوادث بحيث لم يبق قول مستزيد .

لاجرم ان في نشر السلوك تنميم سلسلة اخبار دولتين حكمتا مصر والشام وما اليها اعواماً ، وكان لها طابعها الخاص وميزاتها واذا أحب المؤرخون بعد الآن التوسع في الكلام على تينك الدولتين فيجدون المواد اللازمة لهم في كتاب السلوك مما كان بعضه مجهولاً .

ويقول الناشر الاستاذ محمد مصطفى زيادة من اساتذة التاريخ في الجامعة المصرية : ان كتاب السلوك على ايجازه احياناً قد حوى من الحقائق والاشارات ما لم تحوه مطولات المعاصرين كابن الأثير وأبي شامة وابن شدّاد وابن واصل وابن أبي الفضائل والنويري ويبرس المنصوري وإبي الفداء ، وان المقريري كتب كتابه مستوفاة وزاد على هؤلاء المؤرخين ما انتقاء من مراجع أخرى . واستخدم الناشر تاريخي ابن واصل ويبرس المنصوري من المخطوطات لتصحيح في جملة ما استخدمه من التواريخ والمطابع

وذكر ان المقريري انفرد بأشياء لم يسبق أحد إليها ومنها كلام السلطان العادل الأول بشأن وراثة الملك في الدولة الأيوبية (ص ١٥٢) ومنها الإشارة المهمة الى لفظ «البحرية» (٢٢٣) اذا قُرئت الى الممالك، وقد ظنه جميع المؤرخين مشتقاً من بحر النيل وان فرقة الممالك البحرية التي تفرعت عنها دولة الممالك الأولى بمصر قد سميت بذلك الاسم ومنها غير ذلك .

ولاحظنا ان الاستاذ الناشر اعتمد على بعض علماء المشرقيات الذين خدموا كتاب السلوك او نقلوا عنه او نشروا قسماً منه اكثر من اعتماده على الأصول العربية، ويشير في هوامشه المفيدة الى ذلك مكتفياً بالاسم الافرنجي كأن المفروض ان يكون كل من يطالع كتاب السلوك ملماً باللغات الأجنبية، وكان الأولى ان يترجم الاسم العربي كل مرة ويضع بجذائه الاسم الافرنجي .

* * *

صدر القسم الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك هذه السنة وقد صدر القسمان الأولان (في سنة ١٩٣٤ و ١٩٣٦) مطبوعين في مطبعة دار الكتب المصرية وبنفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر . وبلغ مجموع صفحات الأقسام الثلاثة مع الفهارس الممتعة ١١٧٨ ص بالحجم الكبير . ولأول نظرة في الكتاب يتبين للقارئ مبلغ عناية ناشره وما عناه في رد هذه المخطوطة الى الصواب وما رجع اليه من المراجع العربية والافرنجية، وما علقه في أسفل الصفحات شرحاً وبياناً لما ورد في المتن من الغوامض والمشكلات فدلّ بذلك على مبلغ تحقيقه واستحق ثناء الباحثين . ويقول الاستاذ انه صرف ثماني سنين في احياء هذا الكتاب وتأسف ضمناً ان صده هذا العمل عن التأليف في ابحاث تروقه وتهمه ونحن نقول له ان نشر مثل هذا الكتاب الجليل يثقل هذا التحقيق من الاستاذ زيادة هو تأليف وزيادة . ونرجو ان يطول به العمر ويدوم له التوفيق ليم الكتاب على ما يجب ويحب له كل محب للتاريخ

وقد وقعت للصدیق الناشر بعض هنات في الاعلام الشامية لاتقدح في كتاب ضخم كهذا اذا عرفنا كيف كان الأصل المنقول عنه من السقم والخلل ، وما خلا كتاب للقدماء حتى الآن من اشياء كثيرة من هذا القبيل ، عدت على ناشره فما قلت مكانة عمله ، والكامل من عدت سقطاته .

من ذلك (ص ٨٤) حَسْبَان (هكذا شكها وقال في الهامش انها بغير ضبط في س) والصحيح انها حُسْبَان بالضم قال ابو الفداء في تقويم البلدان (طبعة ربنو ودي سلان بياريز) والبقاء احدى كَوَر الشَّراة وهي خصة وقاعدة البلقاء حُسْبَان بضم الحاء وسكون السين المهملتين وفتح الباء الموحدة ثم الف ونون في الآخر وهي بلدة صغيرة .

(ص ١٧٤) ضيفة خاتون ابنة العادل شقيقة الكامل — ضيفة خاتون سميت ضيفة لأن أمها ولدتها بينا كانت أمها ضيفة في غير بيتها ، ومدرسة ضيفة خاتون مازالت باقية الى اليوم في الفردوس من ربض حلب . وضيفة خاتون كانت كشجرة الدر من النساء اللاتي حكمن في مصر والشام في الدولتين الأيوبيه والمماليك (ص ٢١٩) ابو المظفر يوسف بن كزوغلو — ابو المظفر يوسف بن قزاوغلو اي ابن البنت اي السبط

ص ٢٣١ تَبْنين وهي الصواب وما ورد في الفهرس بثنين غلط

ص ٣١٣ نهر قزل ايرمك — ايرمق)

ص ٥٣٢ بيزين — اظنها تبزين (بعد الزاي ياء ساكنة ونون) قرية كما قال ياقوت في المعجم من نواحي حلب كانت تعد من أعمال قنسرين وصارت في أيام الرشيد من العواصم مع منبج وغيرها

ص ٥٤٦ جسر يعقوب — جسر بنات يعقوب

ص ٧٣٥ قرية حرزما — فسرهما الناشر بأنها بليدة بين ماردین ودينسر من

أعمال الجزيرة والصحيح أنها حَزْرَمًا بتقديم الزاى ثم راء وهي قرية لا تزال معروفة في أول المرج مرج دمشق على مقربة من أقصى حدود الغوطة الشرقية

ص ٧٦٩ قرية شرعمر - قرية شفرعم ، وهي قرية بينها وبين عكا بساحل الشام ثلاثة أميال وكانت منزلة صلاح الدين في حروب الافرنج كما قال ياقوت . وفيها تل الميشوح - تل المفسوخ نسبة لنهر المفسوخ شمالي شرقي عكا . وفيها قرية الفرج - قرية الفرج شمالي عكا وهي على مقربة من قرية القيسية . ومنها قرية طبرنية - نرجح أنها الطيرة

ص ٨١٧ جوسية قرية على مسافة ستة فراسخ من حلب - الصحيح من حمص لا من حلب .

ص ٨٧١ فأقامت الأفراح في الأردوا - تكررت لفظة الأردوا بهذا الرسم في القسم الثالث وحقيقتها الأردو اي الجيش بدون الف في آخرها كما وردت في ص ٥٦٩ وقال انها لفظة مغولية معناها المعسكر

ص ٨٧٥ وافليس وبلادها - وابو قيس وبلادها ، وهو حصن مقابل شيزر ويقال لها اليوم سيجر قرب حماة

وفي الصفحة نفسها - كفردين - كفر دُبين ، حصن بنواحي أنطاكية كما في ياقوت وأقرب الى الوضوح ما أورده ياقوت في مكان آخر وصف به هذه القلعة قال : شقيف دُبين : قلعة صغيرة قرب أنطاكية ودبين ضيعة كالربض لها

ص ٩٠٢ الدرزية او الدروز قال الناشر انهم احدى فئات أهل لبنان وهم منتشرون أيضاً في جبل كسروان المتصل بسلسلة جبل لبنان - تقول ان جبل كسروان داخل في جبال لبنان وهو منها في الصميم والدروز يسكنون فيه قليلاً ويكثرون في الشوف والمتن من عمل لبنان كما ان منهم ألوفاً في اقليم البلان من سفوح جبل الشيخ (جبل الثلج او حرمون) ووادي التيم تيم الله بن ثعلبة (حاصبيا وراشيا) وفي جبل حوران وبعض قرى عكا وقرى حلب وقرى دمشق

ص ٩٣٢ عقبة شجورا - وفي تقويم البلدان الشحورة عقبة بين دمشق والكسوة
 ص ٩٢٣ و ٩٢٨ ارواد (جزيرة رودس) والصحيح ان ارواد جزيرة صغيرة
 تجاء طرابلس وقرب انطربوس كما يظهر من المتن نفسه اما جزيرة رودس فالغالب
 انها هي التي رأيتها في بعض المصادر «رود»
 ص ٨٧٥ وفراها الرحلية والجبلية - فسر التاثر الرحلية بقوله ولعل المقصود
 بالقرى الرحلية ما كان منها على طريق القوافل والرحلة . وهو يخرج بعيد والصواب :
 السهلة والجبلية .

ص ٩٦٨ و ٩٨٧ شقيف تلمنّس وهو حصن قرب معرة النعمان
 ص ٩٧٦ وعيدوا واعمالها - وعيدو واعمالها وعيدو قلعة بنواحي حلب
 ص ٩٨٧ قسمون - قسطون ، حصن كان بالروج من أعمال حلب
 ص ١١٤٩ قصر ام الحاكم - ام الحكيم وهو بمرج الصفر من أرض دمشق
 ص ٢٨ ١ باب الفرايس - باب العمرة - الصحيح باب العمارة وهو معروف
 الى اليوم .

محمد كرد علي

كتاب شرح أسماء العقار

٢٠٦
 تأليف الشيخ الرئيس ابي عمران موسى بن عبيد الله الاسرائيلي القرطبي
 نشره وصححه وواجه على النسخة الوحيدة الدكتور ما كس مايزهوف «المجلد الحادي والاربعون
 من مذكرات المجمع العلمي المصري»
 • هذا الكتاب من كتب مفردات الأدوية ضاع معظمها على
 • لكتاب الأيام والسنين ، وأشهر ما طبع منها مفردات ابن البيطار . وما ظل مجهولاً
 • إلى زمن قريب مفردات الغافقي التي كانت أكبر مصدر نقل عنه ابن البيطار ،
 • ثم مفردات الشريف الادريسي ، وكتاب شرح أسماء العقار لموسى بن عبيد الله
 المعروف بابن ميمون القرطبي .

وقد عثر الدكتور مايرهوف ، أحد أعضاء المجمع العلمي المصري ، في خزانة جامع أبيصوفيا في اسطنبول ، على نسخة من الكتاب الأخير هي حتى اليوم وحيدة في بابها ، فاستنسخها وترجمها الى الفرنسية وحقق موادها الأربع مائة والخمس ، مع مترادفات كثيرة لتلك المواد من عربية وسريانية ويونانية واسبانية وغيرها . ونص على الأسماء العلمية والفرنسية لهذه العقاقير ، وأشار الى الصفائف التي ذكرت فيها في ترجمة كتب ديوسقوريدس وابن سريون وابن البيطار ، وتحفة الاحباب في ماهية النبات والأعشاب ، وكشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب لعبد الرزاق الجزائري ، وفي معجم أسماء النبات للدكتور احمد عيسى ، وغيرها من كتب النباتات الطبية القديمة والحديثة .

وذكر المدلولات القديمة والمدلولات الحديثة لأسماء النباتات الواردة في الكتاب ، ورد كثيراً من تلك الأسماء الى أصولها فقال عن بعضها انها من أصل عربي ، وعن أخرى انها من أصل يوناني او فارسي او سنسكريتي او سامي مع ذكر اشباهها في الآرامية والآشورية والعبرية والسريانية . والذين عانوا بحث أسماء هذه العقاقير يدركون الصعوبة في ضبط تلك الأسماء ومدلولاتها .

وقدم الدكتور مايرهوف للكتاب مقدمة بالفرنسية جود بها كثيراً ، فبحث عن إجلال العرب لكتب ديوسقوريدس في المفردات الطبية ، وعن جعلها أساساً لأبحاثهم ، وعن اضافتهم عقاقير كثيرة عليها مما كان يجهله اليونانيون . ثم تكلم على أشهر المؤلفين العرب في مفردات الأدوية كابن ماسرجويه والرازي وابن سينا وابن ماسة والبيروني والغافقي وعبد اللطيف البغدادي وابن الصوري وكوهين العطار واسحق بن عمران والادريسي وابن البيطار وغيرهم . كثير حتى بلغ داود الأنطاكي من علماء القرن العاشر فبعد الرزاق الجزائري من أطباء القرن الثاني عشر للهجرة . ولم ينس الاشارة الى اصحاب كتب النبات والمعلات وكتب اللغة من غير الاطباء ككاتب حنيفة الدينوري والأصمعي والقزويني والتويري وابن سيده والفيروزابادي وغيرهم . وفي الحقيقة لقد جاءت هذه المقدمة التي بلغت ٤٠ صفحة كبيرة تاريخاً موجزاً او صورة جميلة لتاريخ النباتات الطبية عند العرب .

وبعد ان ملأ الناشر ١٣ صفحة في حياة ابن ميمون القرطبي وفي مؤلفاته الطبية ، انتقل الى ذكر النسخة الخطية من كتابه « شرح اسماء العقار » ثم الى الكتب التي استعان بها في تعيين المدلولات لأسماء العقاقير وفي فحص المترادفات وثبيتها . وعندما انتهى من ذلك تناول الأسماء المذكورة واحداً واحداً فلاً في شرحها . أكثر من ٢٠٠ صفحة كلها من القطع الكبير ، ثم عقب عليها بفهارس او مسارد عديدة منها واحد بأسماء الأعلام الذين ورد ذكرهم في تضعيف الكتاب ، وثان في الأسماء اللاتينية اي العلمية للعقاقير ، وثالث في الأسماء الفرنسية ، ورابع في الأسماء الايبيرية اي التي كان العرب يسمونها (عجمية الأندلس) ، وخامس في الأسماء اليونانية ، وسادس في الأسماء المصرية القديمة والقبطية ، وسابع في الأسماء الأكديّة والآشورية ، وثامن في الأسماء العبرية والآرامية ، وتاسع في الأسماء العربية والحربة وهو بأحرف لاتينية ، وعاشر في الأسماء البربرية ، وحادي عشر في الأسماء السنسكريتية واللهجات الهندية ، وثاني عشر في الأسماء الفارسية . أما القسم العربي من كتاب الناشر فقد اشتمل على نص كتاب « شرح أسماء العقار » وعلى فهرس في أسماء العقاقير المذكورة فيه . وطبع الكتاب في مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة ، على ان يكون المجلد ٤١ من المذكرات التي تقدم الى الجمعية العلمي المصري ، فتشتر برعاية جلالة الملك فاروق . ولا شك ان ابراز الكتاب الذي نحن في صددده على هذا الشكل الجليل ، وبهذه الحلة القشبية ، وشرح مفرداته هذا الشرح العلمي الواسع المضبوط ، هو دليل على ما لبعض المستشرقين من الأيادي البيضاء على لغتنا الضاربة . ولا بد لي من لفت نظر الدكتور مايرهوف المحترم الى بعض ملحوظات لاحظتها أثناء مطالعتي لكتابه الثمين وهي :

أولاً : استنكر ورود لفظة العقار مفتوحة العين في معظم المعاجم العربية (ص ٦٢ من المقدمة) ، واوجب ان تكون بالضم . ولا نرى وجها لاستنكاره لأن العرب عندما عربوا الألفاظ الأعجمية أياً كانت أصولها ، لم يتقيدوا بعدم مسها بل غيروا بعض حركاتها حتى بعض أحرفها . والأمثلة على ذلك لا تعد ولا تحصى .

وقد ذكر الدكتور كثيراً منها في تضاعيف كتابه . فيجب اذن قبول هذه الألفاظ على علاقتها . أما مالا يجوز اليوم قبوله فهو ما يخالف العلم الحديث في تلك المعاجم . مثاله خلط بعض المواليد ببعض كتعريفهم الأرز والعرض والصنوبر والسرو الواحد منها بالثاني ، على حين ان كلا منها جنس نباتي مستقل عن الآخر ، وكتعريفهم اللوز بالبندق ، والكرب بالسلق ، والآس بالرند ، والأوز بالبط الخ . (انظر مقال في عيوب المعاجم العربية في عدد اكتوبر ١٩٤٠ من المقتطف)

ثانياً . شك الدكتور في لفظة (القرينة) وهي نوع من الجلبان البري (ص ٤٣ و ٤٢) وظن انها من الكرسة . قلت انها القرينة لا الكرسة فقد ورد في المخصص (م ١١ ص ٦٢) : « ومنها الجلبان واحده جلبانة ويقال للبرية منها القرينة ولا تؤكل لمراة فيها » وهي على ما أظن احد انواع *Lathyrus* الكثيرة التي تنبت في الطبيعة في بلادنا وفي الأندلس .

ثالثاً : ورد في القاموس التقدمة والتقدمة من اسماء الكربرة . فللفظة التقدمة اذن ليست خطأ خلافاً لما أشار اليه في حاشية الصفحة ٩١ .

رابعاً : تسمية الجنبه *Groseiller* بالريباس هو خطأ على ما اعتقد . فالريباس في كتب المفردات هو *Rheum ribes* ليس غير . وهو معروف تنبته الطبيعة في جبل الشيخ وجبل لبنان . وتجلب اضلاعه فتباع ويصنع منها شراب لذيد . وقد وصف ابن البيطار الريباس وصفاً لا بدع مجالاً للشك فيه ، مع العلم بأن هذه اللفظة تطلق اليوم في الشام على النبات المذكور كما ألفت اليه . ولم اعثر على دليل يجوز اطلاق لفظة الريباس على أنواع *Groseiller* وهي *Ribes rubrum* و *R. uva crisa* و *R. nigrum* فهذه الأنواع الزراعية الثلاثة لا تزرع في بلادنا ولا تنبت برية فيها . ولم يذكرها فورسكال ولا شوييفرت ولا بوس ولا تيبول ولا احمد ندا . ومنابتها شمالي اورية كما هو معروف . وعند ما رجعت ما كتبه عنها في معجمي المسمى (معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية) الذي لا يزال مخطوطاً وجدت ان اسم الجنس العلمي *Ribes* ليس من ريباس العربية بل من *Ribs*

الدنركية او Risp السويدية ، على مارجحه دو كندول سيف كتابه أصول النباتات الزراعية « ص ٢٢١ من الطبعة الخامسة » .

ويتضح من ذلك ان لفظة الريباس لم يطلقها العرب على هذه الجنبية . وهي في الاصطلاح الحديث تسمى الكشمش وان تكن هذه اللفظة في المعاجم تدل على عنب لا نوى له .

خامساً : جاءت لفظة الكنكر في القاموس (مادة حَرَ شَف) مفتوحة الكافين بينهما نون ساكنة فيجب قبولها كما جاءت سواء اكان أصلها الفارسي بالضم ام بالفتح . وهي تدل على البقل الذي نسميه بعامية الشاميين إنكنار وارضي شوكي Artichaut ومن أمثاله الحرشف البستاني وسقوليموس وقنارة وهما يونانيتان .

سادساً : من أمماء التمر الهندي الصبار بالتشديد والحوّصر (القاموس)

سابعاً : اعتقد ان Ononis antiquorum هو الشبارق المذكور في المخصص . اما تسمية الشاميين له بالشبرق فسببه اختلاط اللفظتين المتقاربتين على العامة .

ثامناً : وردت لفظة البهش بهاء ساكنة في القاموس المحيط وفي غيره . ولم أجدها مفتوحة الهاء . وهذه اللفظة العربية تطلق على نوع او اكثر من أنواع البلوط كما تطلق على القهل مادام رطباً .

تاسعاً : أوردت لفظة الشنجار بالفتح على حين ان القاموس قد ضبطها بالكسر عاشرآ : ذكر القاقلة غير مشددة اللام . والصحيح انها بلام مشددة . وهي تطلق على انواع من الهال تنسب الى الأجناس الثلاثة Amomum و Aframomum و Elettaria . وقد ذكرت أهم هذه الأنواع في معجمي المخطوط

أما القاقليّ بألف مقصورة فهي نبات آخر ذكره ، فلا وجه إذن للالتباس بين اللفظتين . وهما مفصولتان في المعاجم .

حادي عشر : ذكر الكبابية Piper cubeba بياء مشددة . وفي القاموس الكبابية كسحابة الخ .

ثاني عشر : اورد لفظة الثلثان بالضم (وهي عنب الثعلب *Solanum nigrum*)
 وضبطها الفيروزابادي بقوله الثلثان كالظربان الخ .
 هذا جانب من الملحوظات التي دونتها ولعلي مصيب في ذكرها . ومهما يكن
 وكتاب الدكتور مايرهوف يعد من خير الأعمال التي يأتيناها العلماء المستشرقون في
 خدمة لغتنا العربية .

مصطفى الشهابي

—•••••—

كتاب ابن حزم الأندلسي ورسائله في المفاضلة بين الصحابة

تأليف الاستاذ سعيد الأفغاني

طبع بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة ١٣٥٩ هـ سنة ١٩٤٠ م ص ٣٥٠ ماعدا التمهات

دل ما خلفته القرون ، وغفل عنه الخصوم ، من مصنفات أبي محمد علي بن
 احمد بن حزم الظاهري أنه كان إماماً عظيماً ، مستقلاً مستدلاً ، معاً مفناً ،
 قوي العارضة ، شديد المعارضة ، بل كان مجدداً لعلوم الاسلام في القرن
 الخامس ، ولكنه رحمه الله تعالى — على سعة علمه ، وشدة استحضاره ، وقوة
 استدلاله ، — كانت « تقع له المسائل المحورة ، والمسائل الواهية » كما قال الحافظ
 الذهبي ، فقد أخطأ في أول مسألة ذكرها في أول كتابه المحلى الذي قال فيه سلطان
 العلماء العز بن عبد السلام كلمته المشهورة : « ما رأيت في كتب الاسلام من العلم ،
 مثل المحلى لابن حزم ، وكتاب المغنى للشيخ موفق الدين » — فجعل كلمة التوحيد
 دليلاً على موجد الكون وعلى نفي تعدد الذات والتركيب ، كما نراه في (ص
 ٤٦٣) وإنما يصح هذا في تفسير سورة الإخلاص ، وآيات غيرها لا في كلمة الشهادة ؛
 أما معنى كلمة (إله) في لغة العرب وفي بيان القرآن ، فهو المعبود ، ولفظ الجلالة

علم على المعبود بحق ، فبين تعالى في هذه الجملة (لا إله الا الله) انه لا يستحق العبادة ، الا من تفرد بالابحاد والامداد ، وأهل الجاهلية مؤمنون بوجوده معترفون له بهذا التفرد ، فأقام عليهم الحجة بما أقروه من انفرادهم بالخلق والتدبير ، على ما أنكروه من تخصيصه بالعبادة ، فكيف خفي هذا المعنى على امام أهل الظاهر ؟ أما الكتاب فيدخل في قسمين (الأول) في حياة ابن حزم ، والثاني في مفاضلته بين الصحابة ، وفي الأول الكلام على عصره ، وأصله ونشأته وشبابه ، وطلبه وعمله ومصنفاته ، ومذهبه وأدبه ووجه ، وأخلاقه ومزاجه وحياته بين الناس ، ووفاته ، وهذه الترجمة — بقلم الأستاذ الأفغاني — قد استغرقت (١٥٠) صفحة وأما رسالة المفاضلة — التي هي القسم الثاني — فهي مجردة من كتاب « الفصل » المطبوع المشهور ، ومقابلة على نسخة خطية محفوظة في المكتبة الظاهرية ، وقد أشير الى ما فيها من اختلاف وزيادة ونقص ، وهي تشمل على ثلاثة أبواب وخاتمة (الأول) في بيان الفضل والمفاضلة وعرض الآراء المختلفة ، (والثاني) في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الصحابة ، وفيه رد شبه واعتراضات على هذا التفضيل ، (والثالث) في أن أبا بكر الصديق أفضل الصحابة بعد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه تفضيل الخلفاء الراشدين على ترتيبهم في الخلافة ، (وأما الخاتمة) فهي بيان تسوية الاسلام بين الناس كافة ، وفيه بحث في القرابة ومناقشة في تفضيلها .

وقد زين الكتاب بتعليقات مفيدة ، وذيل بتراجم الأعلام الوارد ذكرهم في الرسالة ، وختم بفهارس في الأعلام والجماعات والأماكن والكتب والآيات والأحاديث والأشعار والأيام المشهورة والموضوعات ومن ذلك كله تعلم ما بذله الأستاذ الناشر من جهد جهيد ، ووقت ثمين ، أنابه الله تعالى .

محمد بهجة البيطار



فهرس الجزء الاول والثاني من المجلد السابع عشر

الصفحة	
٣	اعضاء المجمع العلمي العربي
٤	الراحلون = = = =
٦	هل تمدنا ؟ للأستاذ محمد كرد علي
١٥	ابو العلاء المعري والحشر سليم الجندي
٢٩	المرأة في عهد النبوة وفي عصرنا الحاضر = محمد بهجة البيطار
٤٨	الطير مآح بن حكيم الطائي خليل مردم بك
٥٧	كلمة (فند شمع) عبد القادر المغربي
٦٣	المكترون من التأليف والمجلدات فيه = محمد كرد علي
	مخطوطات ومطبوعات
٧٨	الدخيرة في علم الطب لثابت بن قرة
٨٢	المختار للشيخ عبد العزيز البشري
٨٤	السلوك لمعرفة دول الملوك للمقرزي
٨٩	شرح اسماء العقار لابن ميمون القرطبي
٩٤	ابن حزم ورسائله في المفاضلة بين الصحابة